

مصطفى محمود



عنبر



دارالمعارف

0201856



Bibliotheca Alexandrina

89
M

مصطفى محمود

عنبر

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الوقت رخيص

في مقهى المتبولى كل شىء رخيص.. الوقت رخيص..
والكلام رخيص.. والضحك رخيص..

تستطيع أن تدفع ثمن كوب من الشاي وتجلس.. فتأتى
الحياة إلى مائدتك.. تأتى إليك آخر الأخبار.. وآخر
الإشاعات.. وآخر النكت.. ويسعى إليك رجل ليمسح
حذاءك.. ورجل آخر ليقرأ عليك موعظة.. وآخر يسحب
لك قرداً.. وآخر يبتلع منشأراً ويحملك أنت وكرسيك على
أرنبه أنفه.. ويقول إنه فنان يأكل أربعة أرغفة فى الفطور
من عرق جبينه.

وعلى الرصيف بين كيزان الحلبة والطراير وباعة
الكشري تجد نفسك جزءاً من «سينما سكوب» شعبي يتغير
باستمرار.

الجرسون وهو يحمل على ذراعه ثلاث طلبات وشيشة
وطاولة وطقطوقة ويترنح وهو يصيح «أيوه المضبوط
معايا..أهوه» والمحامي الشرعي وهو يجلس لا يبدو منه
إلا قفاه وقبضة يده وهي تروح وتجيء في حلقات من
الدخان.. القضية في إيدى اليمين.. النفقة.. والمقدم..
والمؤخر.. والبهدلة كمان.. كله على الله وعلى.. هي دي أول
قضية والا آخر قضية يا بو سليمان؟

وشلبي أفندي صاحب المونوكل والبايون والمنشة..
ومكوجي الرجل بدكة سرواله التي تتدلى على الأرض..
والعمدة والسمسار.. وبائع القلل.. والنشال.. ومدرس
الخط.. ومأمور الضرائب.. والمأذون.. والشماس..
والعرضحالجي.. ومائة آدمي. منكفتون على الموائد يلعبون
النرد ويتهايمسون ويتشاجرون ويعلو شجارهم فنسمع بين
قرقعة الدش والدبش كلماتهم المبحوحة.

- دي معاملة يا راجل.. ده كلام تقوله.. أردھا أردھا
ازای.. والشنب ده كله يروح فين.. دنا أقطع الدراع اللي
تتمد لها.. دي واحدة ما يتمرّش فيها العشرة والمعروف..

خمس سنين.. وأنا شايها في عينيه هات يا زكى.. روح
يا زكى.. اقبض يا زكى.. ادفع يا زكى.. أطلع يا زكى..
انزل يا زكى.. لما داخ زكى وغلب.. وآخر المواخر تعمل في
كده.. وعاوزنى أردھا.. أردھا ازاي. دا الطلاق فيها شوية..
دى عاوزة الدبح.. الدبح والكعبة الشريفة يا شيخ.. وحق
المقام الطاهر.. وحياتك يا نعمة.. إني بعت أهلى على الولية
دى.. وخربت بيتى وشردت عيالى.

بلاش تعاملنى أنا عامل ربنا.. عامل ضميرك.. وخليك
حاكم عادل.. يرضيك خرابى.. يرضيكوا أنتوا يا ناس..
دنا زكى.. زكى أبو الذهب.. اللهم طولك يا روح.. زكى
يطاطى لولية قليلة الأصل.. ويرجع فى كلامه.. طب والله
لأنا رايح مخلص على الولية دى عشان ترتاحوا.. أوعوا
بقه.. أوعوا سيبونى.. أوعوا ياناس..

وتتشابك حلقة الناس حول الزوج المهتاج.. فيجلس
وهو يسب ويلعن، ثم تعود الضجة فتغرق فى قرقة الدش
والدبش من جديد..

ويتسلل إلى المقهى رجل ضامر هزيل يبيع الكتب..
وينادى عليها بصوت رفيع مخنوق..

ابتهالات.. أوراد.. استخارات.. خطب منبرية.. أحاديث
محمدة.. تفاسير..

ويدور في المقهى مرتين.. ثم يتوقف عند جماعة من
إخواننا الأقباط وهمس:

قصص الآباء اليسوعيين.. أقانيم حنا وبولص.. وصايا
القمص جورجوس.. كلمات بطرس الناسك..

ويختفى في الزحام ثم يعود للظهور ليدس في يد كل
واحد إعلاناً ويوشوش في أذنه..

كتاب غرامى، اجتماعى تناسلى.. قصة امرأة باعت
بجسدها للشيطان.. صورة صريحة تعرفك بالمرأة على
حقيقتها مائة صفحة من اللذة المتواصلة!.. أسرار الحياة
الجنسية تكتب لأول مرة..

ويفتح الكتاب على رسم عار ويلوح به في إغراء ثم
يرفع عقيرته من جديد:

ابتهالات.. أوراد.. استخارات.. خطب منبرية..
أحاديث.. تفاسير..

ويختفى بين الموائد المزدهمة وسحب الدخان.. ويصفق
زبون في الركن. ويطلب قهوة على الريحة.. ثم ينسى الطلب
وينام. وينام على وجهه الذباب ويتدلى فكه وتتراخى ذراعاه
في شبه غيبوبة..

والوقت يمضى.. والنهار ينتصف ويبدأ المقهى ينفذ
وتتحول الطبيعة النابضة إلى طبيعة ميتة.. الكراسى مصطفة

في دوائر كل منها ينظر إلى الآخر كأنه يتكلم.. وعلى ظهر كل منها بقعة كبيرة من الزيت والعرق.. وعلى مقابضها بصمات متلاصقة.. وعلى الأرض آثار البلغ والأحذية والبقايب والأقدام العارية وأعقاب السجائر.. وفي الركن الشيخة تستند إلى الحائط وجمراتها ما زالت تنفث الدخان.. وعلى الحوض عشرات الأكواب مقلوبة، والمعلم يفتح درج الحساب ويعد القروش والجرسون يجلس القرفصاء على الأرض وقد اعتمد رأسه بين يديه. وأمامه على الحائط تتدلى لوحة كبيرة مكتوب عليها بالكوفي.. يارب. وإلى جوارها صورة للحرم النبوي.. وكشف طويل بأسعار الينسون والقرفة والقهوة والشاي والمعسل.. وفي الناحية الأخرى.. يتكلم الحاج أمين العجوز.. وأمامه السواك والمنشة.. وقد استغرق في نوم عميق.. وإلى جواره يجلس المعلم زكي.. الزوج الثائر لكرامته يلعب وحده أمام طاولة مفتوحة ويلقى بالزهر في عصبية.. والصمت يلف المكان.. ويدوى له صوت في الأذن.. صوت أعلى من الضجة.. ويتحرك المعلم زكي لينهض.. وفي رأسه نية مبيتة. إنه ذاهب إلى مطلقته وهو ينهب الأرض بخطوات مسرعة وقد كشر عن أنيابه.. وشدد القبضة على عصاه.. لن تعيش فطومة بعد اليوم، سوف تصبح في 'عداد الموتى..

ويعبر الميدان وأعصابه تغلى.. ويقطع شوطاً حامياً من

المشى فى عدة شوارع وأزقة بدون هدف.. ثم يبدأ فى الهدوء.. وتتبخر ثورته. وتذهب مع العرق. وتتراخى قبضته على عصاه ويقف عند قصاب ليشتري عدة أرطال من اللحم. ثم يقف مرة أخرى أمام قفص الدجاج ليشتري بطة.. ثم يضرب فى الأزقة حتى يبلغ سوق الفاكهة فيشتري لبشة قصب.. ويحمل هذه الهدايا كلها إلى بيت فطومة..

ويقف أمام الباب يدقه فى فرح حيوانى، وهو يبرم شاربته.. ويتخيل الليلة المقبلة.. وفطومة فى أحضانه وخدها يتلوى تحت شفتيه.. ويجرى ريقه بطعم ساخن طرى كطعم الملبن.. فيدق من جديد.. وقد تدفقت فى عروقه رغبة ملحة.. وفى نفس الوقت.. تدق ساعة الميدان..

لقد مضت ثلاث ساعات من الوقت.. الوقت الرخيص.

عنبر ٧

سنة كاملة قضيتها في هذا المكان راقداً في عنبر كالخرابة
في مستشفى من عشرات العنابر مبعثرة في الصحراء كعلب
الصفيح.. بين مرضي يسعلون ويلهثون كأنهم في عالم
بلا هواء.

كل شيء هنا منظم.. حتى سعالى يعاودنى كل ليلة مع
الفجر فيضبط المرضى عليه ساعاتهم.. فإذا انقطع يوماً
أقبلوا على بوجوه مصفرة ورفعوا عن رأسى الغطاء
هامسين:

- وله.. وله يا عوف.. مال حسك مش باين ليه.. أنت
ميث.

فأسعل في حدة لأؤكد لهم أنى ما زلت حيًا وبصحة
جيدة. سنة بطولها.

ومضيت أفكر.. في حين تلمل الزميل الذى يرقد على
السريـر بجوارى وناولنى الصحيفة التى يقرأ فيها وهو يشير
إلى خبر أحاطه بالخبر..

- شوف.. طلـعوا دوا جديد للصدر..

ومسحت العرق عن جبينى ولوحت بيدي فى وجه
الذباب الذى ينام على فراشى ويغطيه كحبات صغيرة من
الفلـفل.. وكان الحر لا يطاق.

وعاد صاحبى يلوح بالصحيفة:

شوف الدوا الجديد..

وعدت أمسح العرق من جبينى وألعن الدوا الجديد
والدوا القديم..

- يا أخى سيبنى فى حالى..

- ده.. دوا.. حاينخفك فى شهر..

- يا سيدى مش عايز أخف.. عايز أموت..

- أعوذ بالله..

- تصور نفسك راقد فى التلاجة دلوقت.. ومفـيش عليك

دبـانة واحدة.. تساوى كام دى..

- أَعُوذُ بِاللّٰهِ.. فَالِ اللّٰهِ وَلَا فَالِكَ يَا شَيْخ..
- لِيَهْ يَا سِيدِي.. وَأَنْتِ آخِرَتِكَ حَاتِرُوحْ فِينْ حَاتِرُوحْ
السِّيَا.. مَا أَنْتِ حَاتِرُوحْ التَّلَاجَةِ بَرَضِهِ..
- يَا سَلَامْ عَلَى بَوَزِكَ الْفَقْرَى..
- وَنَظَرَ إِلَى فِي غَضَبٍ ثُمَّ لَوَى شَفْتَيْهِ وَتَرَكَ الْغُرْفَةَ..
وَجَلَسَتْ وَحْدَى أَنْبَشَ الْأَرْضِ وَأَتَأَمَّلُ ظِلِّي الْمَكُومَ عَلَى
الرَّمْلِ.. وَانْظُرْ مِنْ جَانِبِ عَيْنِي إِلَى الْأَفْنَدِيِّ الْوَحِيدِ الَّذِي
يَلْبَسُ الْبِيْجَامَا بَيْنَ الْمَرْضَى وَهُوَ وَقَفَ فِي الْمَرِّ يَغْمَزُ إِلَى
الْمَرَضَةِ بِعَيْنِهِ فَتَضْحَكُ وَتَبْدُو فِي خَدَيْهَا غَمَازَتَانِ..
- وَضَايِقْنِي هَذَا الْغَزْلُ فَوَقَفْتُ أَلُوْحَ بِيْدِي عِنْدَ الْبَابِ:
- يَا سَت..
- إِيَهْ يَا عَوْفَ عَايِزِ إِيَهْ؟
- دِمَاغِي..
- مَا لَهَا دِمَاغُكَ؟
- عَايِزُ أُسْبِرِيْنِهِ..
- طَبْ رُوحَ عَلَى سَرِيرِكَ الْأَوَّلِ وَأَنَا أُجِيبُكَ إِلَى إِنْتِ
عَايِزِهِ.. مَا تَقْفَشُ كَدَهُ زِيْ غَفِيرِ الدَّرِكِ..
- غَفِيرِ دَرِكِ إِيَهْ يَا سَت.. هُوَ أَنَا مَشْ مَالِي عَيْنِكَ.. وَالَا
يَعْنِي أَكْمَنِي مَشْ لَا بَسْ بِيْجَامَةٍ.. وَالَا يَعْنِي..

ورفعت صوتى ليصل إلى الطبيب ورحت أجعر:
- والا يعنى فيه خيار وفاقوس فى العنبر.. والا اكمنى
ساكت ومش عايز أتكلم.. والا يعنى الطيب فى الدنيا دى
ما ينفعش.. لا يا ست.. دنا راجل حر.. وال..
وناولتنى الدواء لتسكتنى
ووضعت الأقراص فى شق جلبابى.. وخرجت أتمشكح
أمام العنبر..
وكان فى انتظارى منظر طريف.. سرب من الزائرات
عائد لتوه من الدرجة الأولى.. تتقدمه امرأة نحيلة
ممصوفة.. تسير فى ألاطه وتصرخ بصوت مسرع:
- أمال فىن جهاز التكييف.. مش حقة المستشفى يحط
جهاز التكييف فى كل أوده.. مش حقة الإدارة ترش ميه..
وتحط شماسى.. وتزرع الصحرا دى.. حرام العيان يعيش
بالسنة والاثنتين ما يشوفش حاجة خضرا.. حرام.. حرام..
وغمغمت الممرضات فى سخرية: حرام.. حرام.. حرام.
وجريت كالفأر أفتح باب العربة للمدام وأراقبها وهى
تجلس فى ألاطه على المقعد وتميل على صاحبته هامسة:
- لازم أفوت على الكوافير.. شعرى بقى زى
العنكبوت.. أوف.. إيه الحر ده.. السوتيان شادد على
صدرى خالص.. معاكى إزازة الكولونيا..

- ازای مدام لیلیان تحط جوزها فی مستشفی زی ده..
ده منفی.. دی لازم عاوزه تقتله..
- أصله غنی أوی.. وعجوز..
- وبجلا بیه وطاقیه تصوری!

وسکبت الکولونیا علی یدیها وراحت تغلسها عدة
مرات وانطلقت العربہ..

وحینما أفقت إلى نفسی کان إلى جوارى.. الشیخ
حامد.. درویش العنبر الأبله.. وكان يلوح بالعصا فی وجهی
وهو یهتف کعاداته:
- قول یارب..

ووجدت نفسی أُلطعه علی قفاه فی غیظ:
- یا أخی طهقتنی.. یا أخی ربنا موجود فی کل مکان
وشایفک وسامعک.. ومش عایز هلوستک دی.. جدد.. جدد
شویه فی الفن..

- أجدد ازای یا راجل یا ضلالی؟
- قول یا فلوس.. قول یا عمارات.
- أمشی انجر یا راجل یا ضلالی.. أنت ربنا مش
حایفتح علیک أبدا.. مش طالع منها عمرک یا کافر..
یا مجوسی..

ولوح بالعصا في وجهي وبانت في عينيه الشراسة..
فأسرعت هاربًا إلى غرفتي وسمعتَه يضرب النافذة
بنبوته ويصيح:

- قول يا رب..

وكان الليل قد انتصف حينما ألقيت بنفسي على فراشي
ورحت أنظر إلى شريط القمر المفضض الذي ينساب من
النافذة.

وأغمضت عيني.. ولكني ظللت مؤرقًا.. كان شخص
ما يصفر تحت نافذتي ويتأوه بأغنية عاطفية.. وكنت أشم
دخان سيجارته عند أنفي.. وقمت أسير في خفة على أطراف
أصابعي.. وخرجت من العنبر فوجدته جالسًا على دكة
ورأسه مائلة إلى الورااء وعيناه ثابتتان على القمر الشاحب..
نصف مغمضتين.. هو نفسه الرومي المتيم أبو بيجاما فقلت
ساخرًا:

- يا سلام على الجلالة يا سلام.. وخداك الجلالة أوى
ياوله.

فانتفض كأنه يفيق من إغماء:

- مين.. إيه ده.. فيه إيه..

- فيه عذول يا عاشق الروح.

- إيه الكلام الفارغ ده.. إنت إيه اللى جابك.
- الحب هو اللى جابنى.. الحب يا روحى.. الحب
يا فاتك. يا قاتل.
وركعت عند قدميه بحركة مسرحية..

فضحك:

- أما بهلوان صحيح..
أيوه أضحك يا روحى.. ورينى سنانك اللولى..
وشفايفك الورد.. أضحك عشان قلبى يضحك لك.. لطفى..
روحى.. قلبى.. حبيبى..

- يا راجل اعقل..

- أنا اللى أعقل.. أنا يا صايع يا عواطلى.. ضحكت
علينا الناس يا شيخ.. ماشى سرحان.. قاعد سرحان.. نايم
سرحان.. على إيه ده كله.. واخده عقلك أوى يا خويا..
بتقولك إيه والنبي..

- يا راجل بلاش كلام فارغ..

- بتقولك.. لطفى.. طوفه.. طفطوفه.. ارحمنى.. باحبك..
خدنى معاك.. قوللى بحبك يا نرجس..

- لا.. دنت.. زودتها خالص..

يا راجل يا شخشيخة.. يا راجل فوق لنفسك.. وفتح

عينيك.. مش كويس كده البنات يجروك من خطمك زى
الخروف.. مش كويس كده البنات ياكلوك ويحلو بيك.. بص
لنفسك فى المراية.. شوف وزنك إالى راح.. شوف وشك
الأصفر.. لا بتاكل.. ولا بتشرب.. ولا بتنام.. وقاعد
يا عينى إيدك على خدك زى الولايا.. مكوى يا ضنايا
وسهران.. واللى كاويك رايح فى سابع نومه.. قلبى عليك
يا روح أمك..

- بلاش قلة أدب يا عوف..

- حاضر يا روحى غلطان.. متأسف.. هات إيدك
أبوسها وراسك كمان وخدك.. و..

- بلاش تهريج..

- أنا قلبى عليك.. العواطف هنا تجارة.. البنت بتكسب
بيها الدكتور والعيان والموظف والمأذون.. وتضيع أنت فى
الزحمة.. مش راح توصل أبداً.. حاتوصل للمشرحة يدوبك.
ما عندكش حاجة تبيعها فى السوق.. ما عندكش عمارة
ولا عزبة ولا رصيد فى البنك.. ما عندكش إلا صحتك..
وعمرك.. وأيامك اللى بتعيشها بقطع النفس..

فأجاب فى ضعف وقد اصفر وجهه:

- وعايزنى أعمل إيه..

- عايزك تشوف صحتك.. تلتفت لنفسك..

- لكن أنا باحبها يا عوف..
- بتحب إيه حبك برص..
- بحب نرجس.. وهى بتحبني أنا لوحدي..
- يا سلام على الطهارة يا سلام.. لايق عليك العبط والله.. أهو أنا دلوقت عذرتها..
- ليه..
- عشان الواحد عيب يشوف حمار زيك فى السكة مالوش صاحب.. ولا يركبوش.. ده أنت لقطة..
- وكان العاشق قد ضاق بالحديث، فهب واقفاً..
- إيه رايح على فين؟
- رايح اتمشى فى الجبل شوية..
- حد يتمشى فى الجبل فى نص الليل..
- زهقان ومش جايل نوم..
- طب خذنى معاك أحميك من الديبة..
- وتأبطت ذراعه وسرنا نتسكع بين كثبان الرمل.. وبلغنا غرفة التليفون.. وكان عامل التليفون يغط فى نومه وجرس التليفون يدق على رأسه بشده.
- وأسرعت إلى السماعه أرفعها.. آلو.. وكان الصوت يأتي

من الخارج، من مكان بعيد، من القاهرة..
- آلو.. عاوز الأنسة نرجس من فضلك..
وابتسمت وأعطيت السماعة الثانية لزميلي ليسمع ذلك
الصوت الحبيب الذى يعشقه..
آلو.. دقيقة واحدة من فضلك.
وطلبت بيت البنات:
- آلو الأنسة نرجس معاك يافندم..
ووضعت إصبعى على فمى محذراً لطفى من الدخول فى
المكالمة.
- آلو نرجس.. أنا عادل..
- أهلاً عدولة.. ازيك.. انت فىن واحشنى خالص.. إيه
كل الغيبة دى يا خاين.. دانت ما يتمرشى فىك العيش
صحيح..
- ما يتمرشى فى العيش والويسكى.. مش كده..
- هىء.. ويسكى إيه بقى متفكر نيش.. دنا فى حالة يعلم
بيها ربنا.. لا باكل ولا بنام.. ولا..
- يا سلام على الإخلاص..
- مش مصدقنى طبعاً عشان إنت خاين.. لكن ربنا عالم
بحالى.. أنا اللى عايشة على ذكراك وخیالك..

مؤثرة يا بت.. قطعتى قلبي..
- بلاش تريقة يا عدولة.. أنا لازم أشوفك.. لازم أقابلك.

- لكن أنا مشغول اليومين دول..
- أخص عليك ونرجس حبيبتك.. النرجس العطشان مين يرويه..

- أنا أرويه يا روحى.. أرويه بدمى..
- لا مش عايزة دمك.. أنت دمك ثقيل..
- آمال عايزة إيه..
- عايزاك إنت.. عايزة قمورى..
- طب نتقابل بكره.. استناكى فى البيت الساعة السابعة..

- واجى ألاقى قمورى مستنى.. وعلى نار..
- تيجى تلاقى قمورك.. ولا على باله..
- أخص عليك يا وحش.. جاك قرصة..
وكنت أنظر إلى وجه لطفى وهو يصغى إلى المكالمه..
وكان يشحب بالتدريج حتى أشرف على الإغماء.. فأسندته على ذراعى وغادرت الغرفة..

ولفحه الهواء الرطب فأفاق قليلاً.. وبدأ يتحامل على نفسه وسرنا معاً في خطا متثاقلة إلى العنبر وملت عليه قائلاً:
- الظاهر أن الإخلاص منتشر أوى اليومين دول..
ولم يجب..

ومرت دقائق.. ونحن نسير كأننا نسير في جنازة.. ثم قلت أداعبه:

- معلش يا طوفة.. كل حلم وأنت طيب.. بكرة تعيش ويركبوك تانى.. ما تستعجلش على رزقك يا أخى..

وظل صامتاً.. ثم قال فجأة بصوت حزين:

- بحبها يا عوف..

- انت بتحب عذابك.. بتحب مرضك.. وحرمانك.. عاوز تلم الناس حواليك عشان يقولوا يا عبنى على شبابه.. يا عبنى على جماله.. مسكين يا روحى عليه.. شوفوا المرض ما بيرحموش.. مفيش حد قلبه عليه.. حتى اللى بيعحبها خانتة.. عاوز تحس إنك ضحية.. إنت علاجك مش حقن فى العضل.. أنت علاجك حقن فى المنخ..

- وألاقى فى حقن المنخ بس..

- تلاقيها عندك إنت بس..

- مش معقول.. الحقن دى عندها هى يا عوف.. فى

إيديها هي.. سعادتي كلها في إيديها..

وسكت قليلاً وحلق أمامه كأنه لا يراني.. ثم أخفى رأسه بين راحتيه، وأخذ يبكي وينشج كالطفل.. وهو يغمغم بصوت مختنق: بحبها..

وصرخت أنا في جنق:

- أنت راجل حمار.. إنت غاوى تياترو.. إنت ما ينفعش فيك إلا العافية..

وكنا قد بلغنا البوابة الكبيرة.. وكان على دكة البواب دورق كبير به ماء فأمسكت به وقلبته على رأسه.. فابتلت خصلات شعره الأسود وأخذ الماء يسح من وجهه.. ويختلط بالعرق والدموع..

ونظر إلى كطفل صغير غضبان..

كان صباحًا جديدًا منعشًا.. وقد خفت حدة الحر.. وبدأت
زرقة السماء صافية ندية..

وجلست في غرفتي اتشاغل بقراءة صحيفة.. وعيناي
تختلسان النظر إلى نرجس الواقفة في الباب وقد التوت
سحنتها وفاضت حقدًا..

وكنت على يقين أنها تفكر في قتلى.. ولهذا بادرت بإثارتها.

- يا ست..

- إيه.. عاوز إيه..

- عاوز راحتك..

- أبعد عني وأنا أرتاح..

- لكن أنا ما أطيقش البعد يا ست..

- ما تطيقش.. جاك طاقة في مخك يا بعيد.. لم لسانك..

وخش على سريرك..

- مانا يا ستي على سريرى أهوه. حا أعمل إيه

كمان.. أخش في المرتبة..

- إن ما سكتش يا عوف حاضرب تليفون دلوقت

للدكتور يبجي يادبك..

قلت أذكرها بمكالمة الليلة السابقة:

- التليفونات ما تبقاش دلوقت يا ست.. التليفونات
تبقى بالليل.. الساعة اتناشر تتكلمى على كيفك.. تكلمى
عدوله.. وحموده..

- إيه الكلام الفارغ ده..

وإذا ما جاش عدوله تقولى له.. جاك قرصة.. يا دوله..
وفهمت ما أقصده فجأة.. واصفر وجهها واحمر من
الخوف والخجل والغیظ فى وقت واحد.. بينما تشاغلنى أنا
بالصحيفة التى أقرأها.. وكأنه لم يحدث شىء ذو بال..
وسمعت وقع أقدامها وهى تبتعد عائدة إلى الأجزاء..

وناديت على رفيق حجرى الصغير:

- وله.. وله يا سمس..

فخرج كالجرذ من تحت السرير:

- إيه فيه إيه..

- أنت مخفى تحت السرير ليه؟

- قاعد فى الدفا..

- دفا إيه يا واد.. ده الدنيا نار..

- إنت اللى مخليها نار يا عوف..

- إزاي!!

- مزعل أختي ليه..
- أختك دى مين يا واد.
- أختي نرجس..
- الله.. هى بقت أختك خلاص..
- وفجأة رأيته يمسكنى من خناقى:
- اسمع أنا بقولك.. إنت ما تزعلش أختي دى أبدًا..
- وكان الشرر يتطاير من وجهه الصبيانى..
- فقلت ضاحكًا:
- حاضر.. سمعًا وطاعة.. يا والدى.. أنا غلطان..
- سامحنى النوبة دى..
- وترك جلبابى ولكنه ظل ينظر إلىّ بحدة..
- وقلت له عاتبًا:
- كده تزعل أبوك اللى بيحبيلك الكراملة..
- والتوت سحنته وهو ينظر إلىّ:
- وانت تزعل أختي ليه..
- وانت إيش دخلك فى الحاجات دى..
- أنا عارف كل حاجة.. أنا مش صغير..
- عارف إيه..

- عارف إنك بتحبها.. ومش طایل.. وعشان كده
بتزعلها دائماً..

واحمر وجهه وسكت فجأة كأنما تكلم أكثر مما يجب على
حين ظلمت أنا أحملق فيه بدهشة ثم انفجرت ضاحكاً:
- بحب ايه يا واد.. مين اللي قال لك الكلام الفارغ
ده.. مين اللي دخل الكلام ده في دماغك..
- أنا شايف بعينه..

- شايف إني باحبها؟..

- أيوه..

- وعاوز تضربني علشان بحبها.. وتاخذها مني وتهرب
بيها في الصحرا زي بدر لاما.. مش كده.. وتنصبوا خيمة..
وتجيبوا ميه من البير وتشربوا.. وتحلبوا الناقة وتعيشوا زي
حسن ونعيمة.. أما رواية جميلة صحيح.. دنت روميو كبير
ولا نيش عارف يا سمسم.. مش تقوللى كده يا أخى عشان
أبارك لك..

وكان الطفل ساهماً وأنا أروى هذه القصة.. كان يتخيل
فعلاً أنه أصبح بدر لاما.. وأنه يجرى في الصحراء على ناقة..
ونرجس في أحضانها.. والواحة الخضراء تبتسم لهما من بعيد..
وظل على أحلامه حتى أيقظته بهزة عنيفة من كتفه قائلاً:
- إلا قوللى يا سمسم.. إنت اطاھرت والا لسه..

واحمر وجهه من الغضب ثم هجم علىّ وخمشني بأظافره
مثل قطة هائجة.. ثم هرب..

ووضعت يدي على وجهي أتحسس قطرات الدم التي
تسير من الخدوش الطويلة الحادة..

«حي.. موجود.. موجود.. وحد ربنا يا ضلالى وحد
ربنا»

ضرب الشيخ حامد نبوته على النافذة.. ثم دخل يتعثر
في جلبابه الطويل.. وجلس على السرير.. ووضع نبوته على
حجره وهو يرمقني بازدياء:

- أنا مش حاشرب عندك حاجة يا ضلالى.. ولا كباية
ميه.. لأن كل حاجتك نجسة..

- اعقل بقه يا راجل يا شمام.. وبطل الوش إلى في
دماغك ده.

- أنا راجل شمام.. أنا..

- أمال أنت إيه.. راجل سارح بريالته وسايق هبله على
الخلق يبقى إيه؟

- ماتخوضش في سيرتي يا عوف لحسن ربنا يسخطك..

- يسخطني إيه بس.. ما أنا انسخطت خلاص واتحكم
عليه بعشرة الهبل إلى زيك.. هو فيه بعد كده سخطه..

- ارجع لربنا..

- لا إله إلا الله..

- توب.. توب إلى الله.. انفض إيديك م الدنيا.. دى
دنيا فانية.. لقمته فانية.. وهدمتها فانية.. و..

- لكن يا شيخ حامد أنا بلا حظ أنك بتتخانى كل يوم
على اللحمة..

- يا حى يا قيوم.. اغفر لعبيدك الضالين.. اغفر لهم
بقه.. عشان خاطرى.. شيل الحجاب من على عينهم..
وضرب بنبوته على الأرض:

وأخذته الجلالة فانتفض وأخذ يدور حول نفسه كمغزل

صوف وهو يصيح:

شيله بقولك شيله

شيله بقولك شيله

ثم هدأ وجلس يمسح عرقه.. واخرج من جلبابه كتاباً فى
التساويح وأخذ يقرأ فيه بصوت جهورى:

- يا غنى يا قوى.. يا قهار يا جبار يا ماجد يا أحد
يا صمد.. اللهم يا نور النور.. استحلفك بالورق المسطور
والرق المنشور أن تجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى
بصرى نوراً وعن يمينى نوراً وعن شمالى نوراً وعن..
- على الله يا عم.. على الله.. يحنن.

فوقف مشدوهاً لحظة وهو يحملق في وجهي ثم احتضن
نبوته ومضى إلى الباب وهو يستعيد:

- اللهم إني أعوذ بك من ليلة السوء ومن ساعة السوء
ومن صاحب السوء ومن جار السوء ومن كلمة السوء.. ومن
محضر السوء..

وخرج..

وتمددت على سريري أفكر.. وأشعلت سيجارة.. وفي
قلبي ابتسامة عريضة.. وظللت أدخن مدة طويلة جاوزت
ساعة لم أحس فيها بالزمن.. ثم أفقت على منظر لطيف وهو
يقف في النافذة وقد بسط أمامه لوحة وراح يرسم عليها
بالألوان.

وتسللت إليه في هدوء.. ثم وقفت إلى جواره أهمس:
- قوللي بقه يا طوفه.. إيه آخر أخبار الغرام..

- بقالها يومين بتلف حواليه.. وتصالح فيه..

- سيدى.. يا سيدى.. وأنت طبعًا شادد فى العريض
وسايق دلالك..

- لا أبدًا.. أنا زعلان فعلاً.. زعلان لأنها كدابة بتكذب
عليه..

- وعاوزها ما تكذبش عليك.. أما عبيط صحيح.. عاوز
بنت صغيرة ما تكذبش..؟ ليه.. هى تاكسى.. عاوز تركب

على بقها عداد.. يا بنى كلهم هنا كدابين.. وأنت كمان
كذاب زهم..

- ليه..

لأنك لما جيت المستشفى.. قلت لكل أصحابك إنك
مسافر البلد.. كدبت عليهم عشان ما يعرفوش أنك راقد فى
مستشفى للسلى وأنت عيان بالسلى.

- أنا معذور يا عوف.. لأن المرض ده وحش..
وما حدش بيطبق سيرته..

- وهى كمان معذورة.. لأن سيرتها بطالة ومحدش بيطبق
يسمعتها.. وكل واحد فى الدنيا معذور..

- ولما كلنا بطالين.. ما تسبنى أحبها يا أخى.. وأدى
أحنا بطالين زى بعض..

وسكت لطفى عند هذا الحد.. ثم عاد إلى الرسم..
وغمس فرشاته فى اللون الأسود وبدأ يوزع الظلال..
وكنت اتتبع أصابعه المرتجفة الضعيفة وهى تمشى على
اللوحة..

وأفاق لحظة ونظر إلى نظرة صبيانية خبيثة ثم أخرج من
جيبه مظروفًا:

- تعرف ده إيه؟

- إيه؟..

- جواب من نرجس..
وسكت لحظة ثم أردف كالطفل:
- مش حاوريهو لك..
- بلاش.. ونا كمان مش عايز أشوفه..
ولكنه كان يتحرق شوقاً.. إلى عرضه على.. وقال بعد دقائق:

- طيب أديهوك تقراه.. ولا تقولش لحد..
- أنا مش عايز اقراه..
- بلاش سخافة.. خد أهو اقراه عشان تتعلم ازاي كتابة الجوابات..
وأخذت منه الجواب.. وبسطته أمامي.. وأخذت أقرؤه بصوت تمثيلي متهدج:

حبيبي طوفه..
أبعث إليك بسلام أعطر من الورد والريحان.. وبتحية أرق من سلسبيل الماء..
مرت أيام وأنا لا أنام.. من خصامك وغرامك..
إن قلبي الذي لم يعرف سواك.. لا يستطيع أن ينسى هواك..
ولا يستطيع أن يخونك..
أنت روحى.. وأنا لا أستطيع أن أخون روحى..

لقد غابت عني ابتسامتك فغابت عني الشمس وأصبحت
أعيش في الظلام يا حبيبي..

إني أبكى كلما سمعت أم كلثوم تغني يا ظالمني.. فأنت
ظالمني وهاجرني وقلبي من هواك مجروح..
احترت.. واحترار دليلي معاك..

أشكى لمن ظلمك فيه. يا سارق من عيني النوم..
حأعيش على ذكراك.. وأموت ضحية هواك..
طوفه يا حبيبي
ليه خلتنى أحبك.

لقد كنت أعيش سعيدة خالية البال.. مثل الأطفال..
فعلمتني الحب والهوى والجمال.. ثم تركتني وحدي غارقة في
دموعي وأشجاني.. ونسيتني.. وأنا ما زلت أهتف باسمك
وأحلم برسمك.. طوفه.. ارحمني.. ولا تطل في تعذيبك..
وكفاية خصام..

. المخلصة إلى الأبد

نرجس

وطويت الخطاب ونظرت إليه بابتسامة عريضة:

- مؤثر يا وله أوى الجواب ده.

- البنت في الحقيقة غلبانة وكاتباه بتأثر عميق.

- أيوه كاتباه بتأثر عميق.. وطابعه منه عشر نسخ..
مش كده.

- إيه؟!..

- طابعه منه عشر نسخ يا خيبان.. دى رابع نسخة
أقرأها الشهر ده.

- يعنى إيه؟!!

- يعنى العشاق كثير ومفيش وقت تألف لكل واحد
جواب.

-إنت كداب.

- حاضر.. أنا كداب.. سكت.. وقفلت بقى.

- إنت معندكش إنسانية.

- ومعنديش إنسانية.

- عوف..

- أيوه.

- إنت مالکش دعوة بترجس.. مالکش دعوة بيها..
ولا تتكلمش عنها أبدًا.

- حاضر.. ماليش دعوة بيها.. والنوبة الجاية لما تهجى
تسقينى جواباتها زى الشربة.. حاغمض عيني وأسد ودانى.

- إنت أصلك سيىء الظن بالناس.. وبتشوفهم كلهم
بطالين.. لكن نرجس بنت طيبة.

- تمام.. طيبة وأصيلة وشريفة.. ومن نسل النبى.
وكان الغيظ قد فاض به حينما بلغت هذا الحد من
الكلام.. وكان شارباه يتراقصان كشاربى الأرنب البرى..
فأشعلت له سيجارة وتركته ليستعيد هدوءه.. ودخلت إلى
العنبر.. وأنا أفكر.

ولأول مرة بدأت أشك فى قيمة نصائحي.
إن الشطارة ليست كالثياب تلبس من الخارج.
ولطفى لن يتحول بنصائحي إلى رجل شاطر.
إنه فى حاجة إلى الخطأ.

وجلست على فراشى.. أدخن.. وانظر إلى ورقة النبض
والحرارة.. وكان الليل قد بدأ يزحف.. والمصباح الصغير
لا يكاد يضىء الغرفة الكالحة.

وذهبت أبحث عن السبرتاية وعن كنكة الشاى..
وأشعلت الشريط.. وملأت الكنكة بالماء.. ولكن اللهب
ما لبث أن خبا وانطفأ.. وقلبت السبرتاية.. لم يكن بها نقطة
سبرتو.. وكذلك الزجاجاة.. كانت فارغة.

وكانت هذه هى المرة الثالثة التى تفرغ فيها الزجاجاة

بعد ساعات من ملئها.

كان هناك حرامى سبرتو فى العنبر.

ودخل عم زكى.. المريض المحول من الليمان.. وخلفه
العسكرى.. وكان يرقص.. ويغنى.. وعيناه وارمتان حمراوان
كقدحين من دم.

ونظرت إليه فى ارتياب:

- عم زكى..

وظل يرقص. دون أن يلتفت إلى:

- أيوه يا بلدينا.

- بطل رقص وكلمنى.

- أيوه يا بلدينا.

- أمور اللومنجية دى مش عليه.

- لومانجية إيه يا بلدينا؟

وعاد إلى الرقص.

وأمسكت به من كتفه فى غيظ:

- بص هنا.. قوللى السبرتو وديته فين؟

- سبرتو إيه يا بلدينا!

- إنت عارف سبرتو إيه.

- أنا مش عارف حاجة.

وعاد إلى الرقص.. ثم تهاوى على الفراش فجأة..
يلهث.. وبصق بصقة نصفها دم.. ثم بدأ ينزف من فمه..
بغزارة.. وأغمى عليه..

وأسرعت استدعى الممرضة والطبيب.. وأضع على رأسه
كمادات من الماء البارد.

ومضت دقائق ثقيلة.. ثم أحسست به يتقلب.. ويفتح
نصف عين.. وينظر إلى هامساً:

- بلدينا..

- أيوه يا عم زكى.

- أنا اللي شربت السبرتو.

- إزاي.. إنت مجنون.

- عاوز أنام.. بقي لى سنة مش عارف أنام.

وعاد إلى السعال والنهجان.. وسكت فترة طويلة.. ثم
أردف:

- إنت تعرف الأفيون؟

- لا.

- أنا عشت طول عمرى أشربه وآكله وأتاجر فيه..
كانوا يسمونى أبو النوم.

ونظر إلى السقف المنخفض وسرح.. ثم عاد يتحدث :
- ودلوقت بقيت لومانجى.. عندى سل فى صدرى..
وعسكرى.. على الباب.. راح النوم من عين أبو النوم..
مفيش أفيون يا بلدينا.. مفيش إلا الإزاة أم ثلاثة
صاغ.. أملاً بيها بطنى زى السبرتاية.. وأرقد زى القليل..
أصلى راجل ابن حظ.

تشرب لك كاس يا بلدينا.
وأغمض عينيه متعباً.

ودخلت نرجس.. وكشفت عن ذراعه الناحل.. وغرست
فيه إبرة المورفين. وبدأ ينام..

وأشعلت سيجارة.

ومن خلف النافذة سمعت صوت لطفى الهامس..
وصوت نرجس المتهدج وهى تجاوبه.. ثم رأيت شبحهيا
يتلاصقان وهما يبتعدان فى الصحراء:

- طوفه.. بتحبنى؟

كان صوتها يصل إلى من بعيد.. ولم أسمع بماذا أجاب
طوفه.. ولعله كان ينكس رأسه فى خجل العذارى..
ولم أعد أسمع سوى أنفاس اللومانجى.. وهى تتردد
ببحوحة كفحيح الأفعى.

وكان العسكرى ما يزال يقف على الباب.
وأغمضت عيني أفكر.. وسرحت طويلا.
كنت أشتري زجاجة السبرتو كل يوم فيشربها
اللومانجى.. سل.. وسجن.. وأفيون.. وسبرتو أحمر.. فاضل
إيه!

وفتح الرجل عينيه وضغط على يدي:
- ازيك يا بلدينا.

- يا عم زكى نام.. احنا ما صدقنا إن الدم قطع.
- أنام إيه يا بلدينا.. أنام على المورفين.. هو الأفيونجى
ينام على المورفين عمره!.

- مش كنت نايم دلوقت؟
- كنت مسلطن يا بلدينا.. مسلطن.
- طيب مسلطن لك شوية كمان.
- اسمع.. قوللى.. مش ممكن البت تدينى حقنة كمان؟
- حقنة كمان ازاي.. إنت مجنون.. دنت واخذها عشان
النزيف.

- إن كان على النزيف ممكن أجيبه تانى.. شوية هز
ودك.. الجروح تتفتح.. وأملا مبصقة كمان.

وبدا يهز صدره.. ليجلب الدم من جديد.. فأمسكت به..
وقيدته بالفراش:

- إيه إنت مجنون يا عم زكى.. عاوز تموت نفسك
عشان حقنة مورفين..

- يا سيدى أنا حر.. أموت نفسى.. أشنق نفسى.. أنا
حر فى جتنى يا بلدينا.. هم حاطينك مخبر على.. تكونش
عسكرى تانى.. لابس مدنى.. يا ناس سيبونى يا ناس..
يا ناس دنا ابن حلال.. دنا..

وبدا يبكى.. ويتشنج كالطفل..
- إيه بس يا عم زكى أمور العيال دى.. دنا صاحبك
وحبيبك يا خويا.

- حبيبى.. بتقول حبيبى يا بلدينا.. ده مفيش حد
بيحبنى أبدا.. ده عمر ما حد حبى فى الدنيا.. دول كانوا
دائماً يقولوا عنى مجرم.. وحيوان.

- أبدا دول هم اللى حيوانات.. دنت راجل أمير.. وابن
حلال.. وكلك إنسانية.

-أمال بابيع أفيون ليه.. بابيع السم للناس ليه.. لما كل
إنسانية.

- ظروفك جت كده.. يعنى هو انت بتبيعه بس..

ما انت بتشر به كمان.. وبتشرب عليه سبرتو أحمر.. ونخل
وقطران.

- أيوه تمام.. خل وقطران..

وسكت لحظة ونظر في عيني في تردد:

- يعنى مش زعلان منى عشان سرقت السبرتو.

- يعنى سرقت العزبة يا سيدى.. دنت عملت زى
الحرامى الغلبان اللى سرق الكفن وشنق نفسه بيه.

- أيوه تمام سرقت الكفن وشنقت نفسى بيه.. طب
ما انت راجل ابن حلال أهوه.

وعاد ينظر في عيني ويهمس بصوت منخفض:

- تكونش بتشرب أفيون زى.

- لأبدًا.. ما أعرفوش وحياتك.

- آمال يعنى بتدافع عنى أوى. كده ليه.

- عشان بحبك.

- بتحبينى.. كويسه دى.. وأدى واحد على آخر الزمن..

بيحبك يا عم زكى.

ومسح العرق عن جبينه.

وضرب يده فى شق جلبابه وأخرج علبة من الصفيح.

فتحها بأنامله المرتعشة.. وناولها لى.

- لف لى سيجارة لف.

وتناولت العلبة.. وبدأت ألف السيجارة.. ثم أشعلتها..
ووضعتها بين شفتيه.

ومضى يدخن فى شراهة.. ثم أردف بعد فترة طويلة من
الصمت:

- من ثلاثين سنة يا بلدنيا كنت عيل صغير.. سنى عشر
سنين يدوبك وكنت أكبر أخواتى.. وكانت أمى تسبب لى
العيال كل يوم.. وتقول لى خد بالك منهم يا زكى.. كان
أهلى يحبونى.. وكنت أحبهم.. وكانوا يدلعونى.. ويقولولى
يا زكوكة.. روح يا زكوكة.. تعالى يا زكوكة.. خد
يا زكوكة.. هات يا زكوكة.. وبعدين.

وضحك فى شراسة وهو يثظر من خلال الجدار.

- وبعدين بقيت مجرم.. عشان بصيت من خرم الباب.
وعاد يضحك.. وقد غطى عينيه.

- ما كنتش أعرف إيه ورا أخرام الأبواب.. كنت
صغير.

وأغرق فى الصمت من جديد.

ومرت لحظات.. ثم عاد يتكلم فى صعوبة:

- كان بيعجينا أيامها ضيوف كتير.. وكلن فيهم واحد

لما يبجى.. أمى تنبه علىّ أنى ماجيش سيرة لأبويا.. وكانت
تأخذه.. وتقعّد معاه مدة طويلة فى الأودة. وتقفّل الباب.
وفى مرة حطيت الكرسي وطلعت عليه.. وبصيت من
خرم الباب.. وشفت أمى من غير هدوم.
وغطى عينيه.. ومرت لحظة رهيبة:
- أمى.. عارف يعنى إيه أمى..
وسكت.

وأمعن فى السكوت.. ثم عاد يتكلم فى صعوبة:
- وبعد كده عملت كل حاجة.. طفشت من البيت..
وسبت البلد.. ودخلت أصلاحية.. وملجأ.. وسجن.. وشربت
الأفيون.. وتاجرت فيه.. وبقيت مجرم.. وحيوان..
ونظر إلى.. وضافت عيناه.. حتى أصبحنا كثقين.. وبدأت
عليه الشراسة.

- مالك.. ساكت ليه.. ما تتكلم يا بلدينا.
كان يجز على أسنانه من الندم ويود لو قطع لسانه الذى
تكلم أكثر مما قدر له أن يتكلم.
وبدأت يده تنقبض وتنبسط فى تشنّج.. وأخذ يرمقنى فى
كراهية.
وحول وجهه إلى الحائط.

- وانحنيت أمسح على جبينه.. وأهمس في رقة:
- دى حاجات بتحصل في كل الدنيا يا عم زكى.
 - أيوه بتحصل لكن بعيد عن العيون.
 - حظك جه كده.
 - وليه ييجى كده يا بلدنيا.
 - وليه يكون فيه سل.. وليه يكون فيه موت.. وليه أى حاجة بتحصل في الدنيا.. وليه ما تريحشى نفسك من ليه.. وتعيش زى الناس اللى بيعيشوا.
 - الناس ماشافوش اللى شفته.
 - الناس ما يبصوش من خرم الباب.
 - أيوه.
 - وسكت.. كمن تلقى ضربة على رأسه.
 - وبعدين.
 - وبعدين تشيل عينك من خرم الباب.. وتبص للدنيا حواليك من تانى زى خلق الله.
 - أبص من تانى.. ما خلاص يا بلدنيا.. الدنيا بتاعتي انتهت.. مافضلش فيها غير عسكرى وكلبش وثمره نحاس.
 - أبدأ ما نتهتش.. لسه قدامك عمر طويل.. وحاتخف..

وحايبيك إفراج.. وحاطلع.. وحاتعيش من جديد.

- وحاكبر.. وحابقي شاطر.. وحاتجيبلى لعبة.

وابتسم وضحك فى مرارة.

- أنا بقيت راجل عجوز يا بلدينا.. وعضىمى نشف من الغلب دور على نفسك انت.

- ما احنا فى الهوا سوا.. ما احنا اخوات يا عمى.

- اخوات.. حلوه دى.. كلامك حلو يا بلدينا.

ونظر إلى فى وداعة:

- بتقول احنا اخوات.. حلوه دى يا بلدينا.. كلمة زى الأفيون تمام.. ننام عليها بقى.

ولف نفسه فى الغطاء.. وأغمض عينيه كالطفل. وتراخت أهدابه.

ومرت دقائق من الصمت.. وأحسست أنه بدأ ينام.. فخرجت أتمشى فى الممر.. ثم دخلت غرفتى وألقيت بجسدى المتعب على الفراش.. وتحت نافذتى سمعت لطفى يصفر بفمه لحناً رقيقاً.. وشممت دخان سيجارته.

وأغمضت عيني.. وبدأت اليقظة تمتزج فى رأسى بالحلم.. وعبر خيالى شبهان نحيلان.

كنت أعرفها جيداً.

كان أحدهما يعذبه حبه.. والآخر تعذبه كراهيته. وكنت
أحس أني شبح ثالث.. لا أعرف عنه شيئاً. وبدأ كل شيء
يذوب في ضباب النوم.

- قوم اصحى.. قوم.. انت يا سيدنا.. فتح عينك.. قوم.
كان هناك أكثر من صوت واحد يتكلم فى أذنى.. وكانت
دوامة النوم تجذبنى كلما حاولت رفع رأسى فأغيب فى هوة
الأحلام من جديد.. وتختلط الأصوات فى سمعى بشىء مثل
قرع الطبول.

- قوم اصحى.. يا جدع.
وفتحت أجفانى فى ببطء كأنها بوابة صدئة طال إغلاقها..
وكان أمامى أكثر من ثلاثين مريضاً.. كلهم أفواه
مفتوحة.. وأيد تلوح فى الهواء.

- قوم.. قوم اصحى.
وطار النوم من عينى فجأة.. ووجدت نفسى أقفز فى دعر
واعتدل فى فراشى وأنا أهتف:
- إيه.. إيه فيه إيه..

- فيه اضراب.
وبدأت أمسح جبينى وأحاول أن أفهم:
- إضراب إيه.

- إضراب عن الأكل.

وعدت أمسح على جبهتي.. وأنا أتمم في بطة:

- لكن دنا كلت.. إضراب ازاي.

وبرز مريض من زعماء المجموعة ليجابوني بعنف:

- بقي اسمع يا عوف.. بقي انت ما تخرجشي على

الإجماع.. إحنا قررنا الإضراب.. يعني الكل يضرب.. يعني
الكل ما ياكلش.

- لكن دنا كلت يا جماعة.

- لا.. إنت ما كلتش.. إنت مضرب عن الأكل...

ورميت غداك في الزبالة.. فاهم.

- خاضر.. أنا ما كلتش.. ومضرب عن الأكل.. ورميت

غدايا في الزبالة.. فيه حاجة تانية.. تسمحو لي أنام بقي.

- تنام ازاي.. إنت لازم تقف معانا للنهاية.. الدكتور

جاي.. ولازم..

وظهر الدكتور في نهاية الممر.. تتدلى من فمه لفافة تبغ.

وانفجر المرضى كلهم يتكلمون في وقت واحد:

- شايف الأكل يا بيه.. شايف الرز اللي نصه حصي..

والشورية اللي زي مرقة القلقاس.. والعضم.

وخرج رجل عجوز من الصف في يده أروانة عدس

وضعها تحت أنف الطبيب:

- والعدس وحياتك يا بيه.. جايين فيه جرادة.. بص
سعادتك.. جرادة.. جرادة بحالها.

- إزاي؟

- أهه وحياتك يا سعادة البيه.

- والقرع.

ووقف الطبيب يممص شففيه اشمئزًا.

- والعيش.

- والبيض.

وكسر المتكلم بيضة في طبق.

- وده أكل العيانيين الغلابا.. اللى مالهومش غير ربنا.

وكان من الواضح أن الطبيب في لخرة وأنه يواجه حملة لم
يتأهب لها.

ووقف يفرك يديه في ضيق ويبحث عن حل.

- لكن ده مش معناه إضراب.. مش معناه إضراب
أبدأ.. انتو تاكلو.. وتكتبوا شكوى.. واحنا نحقق ونجازي
الطباخين.. لكن كده ما ينفعش.. ما ينفعش.. ثم أنا كمان
ما أقدرش أرد على خمسين بيتكلموا في بق واحد.. ثم ده
مش نظام.. ثم..

- يا بيه يرضيك إن احنا نموت من الجوع.. شوف

دفترى.. بقالى سنة بتعالج.. نقصت فى الوزن.. وكله من الأكل.

ونظر الطبيب إلى صاحب الدفتر فى حدة وهرش رأسه.
محاولا أن يتذكراه:

- أيوه أنا افكرتك.. مش أنت فتحى.. مش انت اللى
حققنا معاك عشان بتسكر.. وبتلعب قمار فى العنبر.. مش
انت اللى طلعتوك من البير سكران الشهر اللى فات..
تصوروا يا إخواننا مريض.. يشرب.. ويلعب قمار.. يلعب
بحياته وصحته.. حتى أقراص الفيتامين إلى بنكتبها له
يلعب بيها قمار.. كان ناقص يحط معدته فى طبق ويلعب
عليها.

وتحمس الطبيب وقد وجد حلا يخرج به من الأزمة.
- وبعد كده يشتكى من نقص الوزن.. ويقول الأكل..
أكل إيه..؟.. مش عاجبك الأكل طبعاً.. عاوز مزه.. مش
كده.. مش كده يا سى فتحى.. عاوز مزه.

وتلفت الطبيب حوله فى وجوه المرضى:

- ويصح برضوا تمشوا ورا واحد زى ده وتطاوعوه..
وتضربوا.. ده برضه هو النظام.. أنا عارف إن العنبر ده
مشاغب.

- المسألة مش مسألة عنبر مشاغب.. المستشفى كله

بيشتكى.. والأكل وحش.

- احنا بنصلح الأكل باستمرار.. وبنجتهد آخر جهدنا.. لكن انتو لازم تمشوا على النظام.. فاهمين.. النظام من فضلكو.. كل واحد يروح على سريريه وياكل.. وأنا حاعمل تحقيق فوراً فى شكوايكم.. وانت يا سى فتحى خد دفترك وروح على سريرك.. ومش عاوز مشاغبة.

ونظر إليه نظرة حادة ثم مضى مسرعاً إلى بيت الأطباء.. وهو يخطف خطواته.. كأنه يخشى أن تنبت مشكلة أخرى تلحق به فى الطريق.

وكان العنبر يغلى من الغيظ.. والكل ينظر إلى فتحى على أنه سبب فشل الإضراب.

- يعنى يا سى فتحى كان لازم تشتكى من الوزن فى الساعة النحس دى.

- يعنى كان لازم تعمل زعيم وتجيّب لنا الشبهة.

- ما كنت تروح تشرب خل وتسيبنا فى حالنا يا أخى.

وكان مريض آخر يميل على الرجل العجوز صاحب أروانة العدس هامساً:

- إدينى الجرادة بقى خلىنى أمشى.

- ما تمشى يا بنى وأنا حايشك.

- إيدني جرادتي مش أنا اللي صايدها.

ووقفت أبتسم وأنا أرقب المعركة تنفض والحماس يبرد..
والمظاهرة تنحل إلى أفراد.. كل واحد مكوم على فراشه..
يجذب الملاءة في عصبية أو يدخن أو يهز ساقيه. والصحراء
تمتد أمام الجميع كبساط ساخن تلسه كرايبج الشمس..
ومن خلف الكثبان الرملية البعيدة.. لا يبدو شيء.. سوى
سواء باهتة مصفرة.. لا أثر لآدمي.. أو حيوان.. أو شجرة.

كان كل شيء يبدو ممكناً في هذا الخلاء الموحش. أن يمتنع
المريض عن الأكل.. أو يأكل مخدرات.. أو يصلي..
أو يعشق.. أو يفقد عقله.. أو يتحول إلى فيلسوف.
كان كل شيء يبدو ممكناً.

وجلست على الدكة واجماً. وقد وضعت ساقاً على ساق...
وعلى بعد خطوات مني كان عمود التلغراف يزن كأن به
عش نحل.. وكان صاحبنا المريض يتسلل من العنبر حاملاً
الجرادة من جناحيها.

وحيثما عدت بعد ساعات إلى سريري كان هناك صوت
ثالث.. غير صوتي وصوت الراديو.. صوت يخشخش في
الركن.

واكتشفت أن المريض الجديد الذي دخل محمولا على

محفة منذ قليل.. يتنفس.. وأنه يحدث هذه الخشخشة برئتيه
الهاكتين كزوج من الغرايل.

ولم أكن أعلم عنه شيئاً سوى اسمه. فاقتربت على
أطراف قدمي وملت عليه هامساً:

- جرجاوى.. مالك.. عاوز حاجة.

فلم يلتفت.. ولم يتحرك من مكانه وإنما حرك عينيه في
محجريهما.. ونظر إلى برهة.. ونطق كلمة واحدة:
- أشرب.

وكانت نظرتة اليايسة تدل على أنه رجل تعود أن ترفض
كل طلباته.

وذهبت إلى النافذة وعدت بكوب في يدي ملآن لآخره
بالماء.. وأسندته على ذراعى وسقيته.. وحينما أراح رأسه على
الوسادة مرة أخرى كان يتصبب عرقاً.. وكانت الوسادة
مبللة في رقعة واسعة بحجم رأسه.

وتشجع قليلاً.. وحرك عينيه في محجريهما حتى واجهاني
بنظرة ثابتة يبدو فيها طلب آخر.

- عايز حاجة.. كمان يا جرجاوى.

وظل ينظر في وجهي ثم قال:

- عايز شوية هوا..

فنقلت سريريه حتى أصبح تحت النافذة.
وكانت هذه الكلمات القليلة كافية لتوثيق التعارف بيننا
فابتسم، وبانت في فمه الواسع أسنان مكسوة بطرايش من
المعدن:

- أنا من جرجا.
- ولاد عم والله.. وأنا من المنيا.
- وأخذنا نتبادل التحيات والمراحب مدة.. ثم عادت
الخشخشة.. وقال وهو يشير إلى صدره:
- أصل أنا واخذ شوية برد..
- نعلش كلنا على دى الحال..
- الحكيم قال دول شوية برد.. تنام لهم جمعه ويروحوا،
حاكم أنا عمرى ما رقدت، ولا شفت العيا.
- وابتسم ابتسامة باهتة وأردف:
- أنا زمان ونا صغير جيت من جرجا لمصر ماشى.
- وسكت لحظة ثم أخرج إصبعه من النافذة مشيراً إلى
الهواء:

- شايف مصر دى كلها.. أنا اللى بنيتها بدراعى.. كل
عمارة رصيت فيها طوبة.. وشلت شكاره جبس ودكيت نchte
أرض.. وسويت جدار.

ولوح بذراعه الخشنة في الهواء:
 - الصعايدة ياعم هم اللى بنوا ده كله.
 وكان يبدو أنه سعيد لأنه بنا ده كله.
 وتصيب العرق على جبينه!.. وفتح فمه ليتكلم.. ولكنه
 سكت ولم يقل شيئاً.
 - عاوز حاجه يا جرجاوى.
 ولم يجب.. وظل يبحث عن الشيء الذى يريد.. ثم
 تحركت عيناه فى محجريهما.. ونظر إلى قائلا فى بساطة:
 - عاوز أشرب.
 وناولته القلة.
 وظل يكرع.. والماء يطفح على جلده فى سيول من
 العرق كأنه إناء مثقوب.
 ثم أراح ظهره على الوسادة.
 وجذب نفساً طويلاً لم يسعف رثيه الجائعتين للهواء
 فمضى يلهث.. وأشار إلى النافذة محاولاً أن ينطق من خلال
 اللهاث.
 - عاوز.. عا.. وز
 - أيوه يا جرجاوى يا خويا.
 - عا.. وز.. شوية.. هوا..

وكان سريره بجوار النافذة.. وكانت الستائر مفتوحة.
وكان الهواء يرح في الغرفة.. ولم يكن هناك سبيل إلى
فتح نافذة أخرى في الجدار.
- عا.. وز.. شوية.. هوا..

وظل يتهته.

ثم بدأ وجهه يزرق.

وخرجت من فمه شهقة طويلة مسموعة غاب بعدها عن
الحياة.

ونظرت إلى عينيه.. اللتين كانتا تستنجدان من لحظة..
فلم أجد فيها شيئاً.

مات الجرجاوى الذى بنى مصر.. كانت أبعد آماله أن
يشرب.. ويتنفس.

وجذبت على جسده الملاءة.. ووقفت صامتاً ثم انحنيت،
وقبلت جبينه.

وتجمدت في مكانى إلى جوار النافذة.. ومضى وقت
لا أدرى كم دقيقة.. ولا كم ساعة.

ودخل لطفى.. وحلق في الغرفة.. وفي وجهى.. وفي
السريـر المغطى بالملاءة.. ولم يلحظ شيئاً لأنه قال بنعمة
طروب:

- وله يا عوف.. أنا حاتجوز.

وجلس على السرير إلى جوار الميت وأردف كالطفل:

- أنا حاتجوز.. سامع.. مش تقوللى مبروك يا أخى.. ولم
أجب وظللت أحلق فى وجهه.

وعاد يتكلم فى عصبية:

- أنا حاتجوز نرجس بكرة.. أنا عارف إنك مش
موافق.. لكن هى بتحبنى.. وأنا بحبها.

وظللت صامتاً.. وصرخ لطفى:

- جاوبنى.. انطق.. قول إنك حمار زى ما بتقول كل

مرة.

وظللت صامتاً.. وسكت لطفى كأنه تلقى لكمة.. ثم
خرج مغضباً.

ومضيت أحلق فى الرقعة الصغيرة من الفراش حيث
كان يجلس رجل يرقص من الانفعال.. إلى جوار جثة
ملفوفة فى ملاءة من الدمور.

ومضى اليوم الخامس على إرسال الإشارة التلغرافية إلى شيخ الحارة في جرجا حيث يسكن الجرجاوى.. ولم يصل أحد لإستلام الجثة.. واعتبرت إدارة المستشفى أن الجثة بدون أهل وأوصت بدفنها في مدافن الصدقة.

وجلست أنتظر عربة الموتى وإلى جوارى زائر من شبين لاستلام أحد أقاربه.. وكان يحمل في يده صرة بها عنب.. يقزقز منها حبة بحبة.. ويحكى لى قصة خاله:

- بالك خالى ده.. ما كانش حد قده فى البلد.. ماكانش حد يملا عينه أبدا.. كان راجل طول بعرض قد الحيطه.. يقول للأسد قوم وأنا أقعد بطرحك.. مين كان يصدق إنه يموت بصدرة!

وسكت وهو يلوك حبة من العنب فى فمه ويفكر:

- بالك فيه حاجة بتفضل فى الدنيا دى؟.. أبدا كله بيروح غاطل مع باطل.. هو خالى ده ياما زرع.. وياما جمع وياما اشترى طين.. وياما حوش فلوس.. والآخر إيه فضل له من ده كله.. مفيش غير الركعتين اللى صلاهم.. والورثة خدوا الباقي.. أنا يا عبد العال حايونبنى فدانين من عرق

جبينه.. وأدى حال الدنيا.. والله يرحمك يا خالى.. لك عندنا
تربة مبنية بالحجر ولها حوش ومندره.. بنيتها بايدك.. واحنا
برضه اللى حانقعد فيها.. ونربع فى مندرتها.

وشعر بالراحة بعد أن فلسف الدنيا بأنها لا شىء
وخص نفسه بفدانين من عرق جبين الميت.. وانشغل
بالعنب من جديد.

وأقبلت العربى ومعها اثنان من الحانوتية وحملت الجشتين
وركبنا خلف السائق.

وكان الرمل يسفع وجوهنا طول الطريق.. والحانوتية
الاثنان يدخنان فى مزاج واستغراق.. وصاحبى يأكل العنب
ويتحدث عن خاله.. وأنا أعتد رأسى بين كفى.

وسكت صاحبى فى منتصف الطريق وبدأ ينام.. وسمعت
الحانوتى السمين يقول لزميله:

- تعرف الميت اللى دفناه امبارح.. مش لقيت فى بقه
تلات سنان ذهب.

- وعملت فيهم إيه؟

- ما أخبش عليك.. خلعتهم.. قلت حرام أسبيه يقابل
ربنا كده وفلوسه فى بقه.. لىروح جهنم.. وتبقى فى وشى.

- خيرك على الحى وعلى الميت يا صالح يا خويا.

وضحكا.. وتصاعد للتبع الذى يدخنانه رائحة غريبة.
وبدأ الطريق يتلوى والعربة تترنح.. والحانوتيان ينمان
على بعضهما بعضاً من السطل.

وفي نهاية المشوار.. عند مدافن الصدقة كان عم صالح
الحانوتى عند باب العربة ينظر فى الجثتين.. ثم يحمل
إحدهما إلى حفرة عليها لوح من الحجر.. وجذع صبرة
ذابلة.

وجلست على مقهى فى طريق العودة أشرب كوباً من
الشاي.. وعلى فمى ابتسامة واسعة.

لقد أخطأ الحانوتى المسطول وحمل جثة الخال إلى مدافن
الفقراء.. وترك الجرجاوى لتذهب به الصدفة إلى شبين
حيث يدفن فى قبر جديد له حوش ومندرة.

لقد وجد الجرجاوى أخيراً من يزوره حينما أصبح
تراباً.. بعض العزاء يا جرجاوى يا غلبان.. لم تجد شربة
الماء فى حياتك.. وسياكل زوارك الكعك على روحك.. كل
يوم جمعة.

واتسعت الابتسامة فى فمى.. ثم تحولت إلى ضحكة
تعسة.

كنت أشاهد لطفى من النافذة.
كان يذرع الصحراء أمامي وينبش الرمل بقدميه وهو
زائع البصر لا يستقر لحظة واحدة في مكان.
وكنت أفكر في أحواله.

لقد تزوج من ثرجس.. ومضى على زواجه شهران
تعيسان وهو شارد مثل فراش قصوا له جناحيه.

لم يكن سعيدًا في حبه.. ولا في زواجه.
كان يبكى.. وكان يضحك.. وكان يهذى.. وكان يقول:
أحبها.. أعبدها.

ومع ذلك.. كنت أشك على الدوام في أن ما به هو الحب.
ونظرت إلى الرمال.. بعيدًا.. حيث يقف.. وتلاقت
نظراتنا.. وأقبل ناحيتي في مشية بطيئة ذاهلة.. حتى بلغ باب
الغرفة.. وتوقف ينفذ رماد سيجارته..

وكان شارباه يتراقصان في عصبية.
وتركته يجلس على الفراش ولبثت صامتًا.. أراقبه وهو
يدخن.. وينفخ.. ويهز ساقيه.

ومرت دقائق ثقيلة.. ثم قال فجأة:

- أنا تعبان يا عوف.. تعبان.. مش عارف إيه أخرة ده كله..

- لازم نمت امبارح من غير غطا.. معلهش.. اشرب كباية حلبة ونام.. وانت تصبح كويس.

- بلاش هزار.. إنت عارف إني باتكلم جد دلوقت..

- وأنا كمان بتكلم جد..

- إنت مش بتحترم آلامى.

- آلامك إيه يا طوفه يا حبيبى.. ده انت أسعد إنسان فى الدنيا.. حببت لدرجة الجنون.. واتجوزت الى حبيتها.. وبعد كل السعادة دى واقف على عش حبك تندب زى الغراب.. وتقول تعبان.. إلحقنى.. مش عارف أنا رايح فين.. مش عارف إيه أخرة ده كله..

أعمل لك إيه طيب.. أجوزك واحدة ما بتحبهاش..
والا أعمل لك إيه..

- مش عارف..

- تبقى تشرب حلبة.. كل الناس إالى ما بيعرفوش حاجة.. بيشربوا حلبة.

- إيه.. هو.. ده.

وبداً عليه اليأس.. وسكت لحظة.. ثم أردف في حزن:

- نرجس مش بتحبني يا عوف.. وده هو اللي معذبني.

- إزاي بقه.

- نرجس لها ماضى طويل.. ولها علاقات كتيرة.. وأنا

مش أول واحد في حياتها.. ومش معقول حاكون آخر واحد.

نرجس كدبت على.

- إنت اللي كدبت عليها يا لطفى.. إنت اللي قلت لها

باحبك.. وانت مش بتحبها.. وعمرك ما كنت بتحبها. إنت

حببت واحدة تانية في دماغك.. واحدة زى الملاك مالمسهاش

راجل.. أبوها نبي.. وأمها مريم.. إنت ظلمتها. إنت أنا.

- أنا إزاي.

- أنا في عواطفك.. بتفصل الناس على المقاسات اللي

تعجبك.. وتحبهم.. بتنسى دائماً إنك مريض، وإن الناس

بتحبك بعيوبك.

- أنا مش كده.. أنا مش كده أبداً.

- إنت عاوز تغسل نرجس من ماضيها قبل ما تحط

إيدك في إيدها.

- أنا مش كده.. أنا عمرى ما ظلمت حد.. أنا عشت

طول حياتي في حرمان.

- المحرومين هم أقسى ناس فى الدنيا.

- إنت تفكيرك غلط.

- بالضبط.. لأنه مش من المقاس المناسب.. لأنه مش متفصل حسب طلبك.

- إنت دائماً تصدمنى.. إنت نفسك قلت لى على نرجس كدابة.

- انتو الاتنين كداين.. لكن هى أشرف منك.. لأنها بتكذب على الناس بس.. إنما انت بتكذب على نفسك كمان.

- إنت مش طبيعى النهارده يا عوف.. أنا عمرى ما سمعتك بتتكلم بالشكل ده.. مش معقول أكون إنسان وحش بالدرجة دى.

- إنت مش وحش.. إنت صغير.. إنت بقالك ست أشهر عايش معانا تاكل وتنام.. لكن عمرك ما كنت معانا.. كنا بنفرح كلنا.. وانت قاعد تعيط على حبك.. وكنا بنموت.. والنقالة تشيل مننا ثلاثة.. وانت قاعد فرحان بالحضن اللى خدته بالليل.. كنت لوحدك دائماً.. واللحظات القليلة اللى فقت فيها للناس اللى حواليك.. كانت صدمات بالنسبة لك.. كانت حاجات جديدة.

- أنا مش فاهم حاجة.

- ومش حاتفهم حاجة.. لأنك بتتكلم لغة ثانية غير لغتنا.. بتتكلم إنجليزى.

- إيه ده.

- إنت عايش فى نفسك.. إنت مش بتحب.. إنت بتمر بحالات عصبية.

- إنت لازم شارب حاجة.. مش معقول تقول الكلام ده وانت فى عقلك.

- أنا مش شارب حاجة يا طوفه يا خويا. إنت اللى سكران.

- مش معقول.. إنت عارف قبل كل الناس إني بحبها.. وعارف قد إيه بحبها.

- هى مين؟.. إنت بتحب تصوراتك.. وبتكره تصوراتك.. وبتعشق خيالك وتخاف من خيالك.. إنت بتعيش أربعة وعشرين ساعة كل يوم مع نفسك.. إنت بترسم مش بتحب.. واللوحة مش عاجباك.. وعاوز تقطعها.. ودى الحكاية كلها..

- إيه ده.. انت بتخرف.

- جايز.

- إنت ضايقتنى جدًّا.. جدًّا.. بكلامك.

- اشرب حلبة.. كل الناس الى بيضايقوا من كلامى
بیشربوا حلبة.

وكان الغيظ قد بلغ به غايته.. فسكت وهو يحز على
أسنانه وجذب أنفاسًا طويلة من سيجارته.. ثم قام فجأة..
وخرج.

وبقيت وحدى أفكر، وسرحت.. وأغمضت عيني. ومرت
دقائق أفقت بعدها على صوت التمورجى وهى يمسخ
الكومودينو ويناولنى صرة.. تذكرتها على الفور. فقد كانت
صرة المرحوم الجرجاوى.. وكان بها رغيف جاف وبصلة..
وهى كل التركة التى خلفها.

وجلست فى فراشى واحتضنتها ولم ألحظ الساعات التى
مرت بى وأنا فى جلستى لا أكاد أتحرك.. ولم ألحظ نرجس
التى دخلت الغرفة وأضاءت المصباح.. لم ألحظها حتى
اقتربت منى وهزتنى من ذراعى.

- مالك يا عوف.

ونظرت إليها كأنى أراها لأول مرة.. وأجبت فى خفوت:
- مفيش.

- مالك.. تعبان؟

- لا مفيش حاجة.. بس نعست شوية.

وكان معها مفرش تشتغل فيه بالإبرة.

ووقفت إلى جوارى تشتغل.. وظللت أنظر إلى وجهها
كانت جميلة.. مضيئة.. وكانت عيناها حزينتين.
وقلت لها برقة:

- سرحانة ليه يانرجسة.. فيه حاجة مزعلاكي.

- الدنيا كلها مزعلاني.

- دوسي على الدنيا يا عروسة.

- الدنيا داست علىّ يا عوف.. وداست على كل
الحاجات الحلوة اللي كنت بحبها.

- إيه الكلام ده.

- انت نفسك قلت لي مرة إنك عجوزة ووحشة.

- كنت باضحك زي عاداتي.. وانت عارفه.

- لا.. لا.. كنت بتتكلم جد.. وكان كلامك صحيح.. أنا

فعلا عجوزة ووحشة.. لكن مش ذنبي يا عوف.

أنا اتقتلت ألف مرة.. ما بقاش في روح.. بقيت جسد

وجسد متعذب.

إنت ماشفتنيش من عشر سنين.. وأنا طفلة بحب الناس

وأصدقهم.. كنت حاجة تانية.

- وإيه اللي غيرك.

- معرفش.

وسكتت على مضض ثم أشارت بإصبعها إلى المصححة
وقالت:

- بص حواليك.. فيه حد يعيش فى الدنيا دى ولا
يتغيرش مرضى كلهم ييموتوا.. كلهم فى حمى.. أطفال..
وشبان وعجائز وأنا وحيدة بينهم.. حلوة وصغيرة.. وكل
واحد يقوللى خليكى جنبى شوية.. عاوز أحكيلك.. ويحكلى
حياته وعذابه.. بعدين يقول لى بحبك.. بحبك يا نرجس..
عشر سنين وأنا عايشة فى حب.

ونظرت فى وجهى وقالت متسائلة:

- أنا معرفش المرض بيعمل فيكو إيه.. بيعرق
أعصابكم.. بتحسوا إن عمركم قصير.. بتبقوا نوع تانى
غير باقى الرجالة.. تبقوا سخنين.. هه؟

وابتسمت وضربتنى على صدرى .

- بتبقوا حبيب.

وسكتت مدة طويلة.

- وبعدين.

فأجابت وهى شاردة:

- كان كل واحد يحبنى لغاية ما يخف وبعدين ينسانى.

كنت زى البروفة اللى تتلبس جوه الدكان بس.. كنتو
أشطر منى دائماً.. وكنتوا تقعدوا مع بعض.. وتعلموا بعض..

وتقولوا نرجس الشقية.. كنتو تقولوا كده عشان تنسوني..
وبعدين بقيت شقية بصحيح.. وبقيت أكذب زيكو.. بقيت
وحشة.

وسكتت.. ونظرت في وجهي بعينين جامدتين. ثم التقطت
مفرشها وعادت تعمل من جديد.. وأغرقت في الصمت.
ومرت دقائق طويلة.. ثم سألتها في حرج:

- قوليلي يا نرجسة.. انتي بتحبي لطفى.

فأجابتنى فجأة وبعبسية:

- أنا عارفه إنه عاوز يطلقنى.. وأنا عاوزاه يطلقنى.. أنا
مش بحبه.. وهو مش بيحبني.. هو واحد منهم.. واحد من
اللى كانوا عيانيين وخفوا.. البروفة ما عادتش تنفعه.. هو
عاوز بدلة جديدة.

وغلبها الألم. فبكت في حرقة. ثم غالت دموعها
ومسحت وجهها وعادت إلى المفرش. وهى تغمغم بصوت
مختنق:

- أنا بكذب، وأنا باكره الكذب.. أنا طبيعتى مش كده..
أنا مش وحشه.

ورفعت إلى وجهها صافياً كوجه الطفلة.. وكانت عيناها
تتألقان كسواء غسلها المطر.

- أنا مش وحشة يا عوف.

- أنا عارف.

- الدنيا الى عشتها، هي الى كانت وحشة أوى.
واطمانت إلى ثقتى فهدأت وعادت إليها الابتسامة،
وقالت وهي تشيح بذراعها كأنها تبعد حلماً مزعجاً:

- بكره آخر يوم على كل حال.. بكره المرور والعنبر
حايضى والعيانين القدام الى خفوا حايطلعوا ويبجى
عيانين جداد غيرهم.. بكره تنتهى القصة وتطلعوا كلكم من
حياتى وأنساكم.. وتنسونى.. ويبقى مفيش لطفى وعوف وعم
زكى وشيخ حامد... كلكم حاتبقوا ذكريات.. اتناشر ساعة
وابتدى أعيش من جديد فى قصة تانية.. بكره أقولك سعيدة
يا عوف.. مع السلامة افكرنى بالطيب.

ونظرت إلى نظرة رقيقة وبدا وجهها سمحاً.. ساذجاً..
وتصافحت قلوبنا.. وتصافينا.. وغمرتنا لحظة سعيدة. ثم عاد
وجهها فكسته غشاوة معتمة وانسدل عليه النقاب القديم.
وقلت وأنا أربت على يدها:

- سيبك من الأفكار السوده دى.. الدنيا لسه حلوه..
وانتى لسه حلوة وصغيرة.. وكل الناس بيحبوكى.
فنظرت إلى وهي شاردة ثم عادت إلى شغلها.. وأخرجت
بلوفرًا صغيراً من الصوف.. وأخذت تعمل فى آلية.. وانزلق
أحد أزرار مريلتها فانكشف قميصها الداخلى.. ولاحظت

أنه قديم متآكل في عدة أماكن.
وكانت مشغولة بالتريكو.. تحرك الإبر في هدوء وتلذذ.
ثم رفعت يدها عن الشغل فجأة وقالت في زهو:
- حلو البلوفر ده؟. أنا عملته في يومين.
- لمن.. ده صغير أوى.
- لأخويا محمد.

وابتسمت وهي تمسك البلوفر من كفه وتحتضنه. وانفرج
النقاب الحزين عن وجهها مرة أخرى كما تنفرج ستارة
قائمة. وتبدت خلفه ملامحها الوديدة.

واتسعت ابتسامتها شيئاً فشيئاً وهي تتخيل أخاها
الصغير يدخل في البلوفر.

- أخويا محمد سنه تسع سنين بس. عاوزه أطلعه
دكتور.. حاعلمه في العالي وأدخله الطب.

وعاوزه إيه كمان يا نرجسة؟.

- عاوزاه يبقى مدير كبير في الصحة.

- وإيه كمان.

- ويبقى له بيت في الزمالك.

- وعاوزه إيه لنفسك.. لك انت.

-- أنا؟.

وسكتت.. ثم أجابت ببطء وبنبرات أخرى خافتة:

- مش عاوزه حاجة.

- أبوكى عايش يا نرجس.

- أبويا وأمى ماتوا.. أنا راجل العيلة.

- أنت راجل قمور أوى.

ونظرت فى عينيها أبحث عن الشيطانة العابثة.. ساوية القلوب.. فلم أجد سوى رجل كبير طيب.

ومضت الاثنتا عشرة ساعة بسرعة لم أكن أتوقعها. ووجدت نفسى أجلس فى عربة واسعة بقطار المصحة المسافر إلى القاهرة.. وحولى مرضى عنبر سبعة كلهم.. عم زكى جالس على أرض العربة يلعلع بموال بلدى.. وأنا أنظر من نافذة القطار إلى عنابر المصحة المتناثرة فى الصحراء كخييام عربان رحل.

وكل شىء يبدو لى كالحلم.. فأفرك عيني بين حين وآخر.. وأعيد النظر حولى.

هل كنا جميعاً ننام بين الحياة والموت فى هذه الصحراء العارية.

هل هذا عم زكى اللومانيجى الذى كان يشرب السبرتاية كل ليلة.. ويسعل حتى تتمزق رئتاه وتنزف خراطيم دم.

هل هو عم زكى الذى يغنى الآن.. وكفه على صدغه.
كان الغد يحمل لنا فى طياته هدايا جميلة، دون أن ندرى.
لقد شفينا جميعًا. وحصل اللوماني على إفراج. وتغلب
على داء المورفين.. وزاد بضعة أرطال.. وامتلأت الحفر
الغائرة فى خديه.. وجرى الدم فى عروقه.. وانطلق يغنى.
وأكل الشيخ حامد علكة جعلته يكف عن ترديد
الأكاذيب. ويخفى السبحة فى عبه.
ومر لطفى بتجربة لن ينساها.

وجلست أنا فى فراشى أجمع خبرات الناس. وأذاكرها فى
رأسى كالتلميذ النجيب.

وارتفع صوت عم زكى يلعلع بالغناء. وكانت الشمس
تنصب من النوافذ دافئة تبعث الخدر فى الأوصال.
وأحسست بأن الدنيا جميلة.. جميلة جدًا..

وكان الشيخ حامد يلقي مصاصة القصب تحت قدمي
ويجذبني من سروالى قائلا:

- عارف يا ضلالى ربنا شفاك ليه؟..

- ليه..

- عشان يمد فى أجلك.. لجل تشيل ذنوب كمان وكمان..

ويقالك في جهنم قصر عالى.. حاكم ربنا دائماً يد في عمر
الأبالسة.

- يا سيدى كتر خيرك.. ده بركة دعاك.. والأبالسة
لبعضهم..

- وحدوه.. وحدوه.. وحدوا الى فلق البحر..

- فلقتنى يا شيخ.. كل وانت ساكت.. مش كفاية إنك
واخذ عود القصب سرقة.. وكمان حتغنى علينا وتعمل ولى.

- سرقة.. حد الله يا شيخ.. حد الله بينى وبين الحرام..
وفعل الحرام.. وأهل الحرام.. وذكر الـ..

- بس.. بس..

وحشوت فمه بمصاصة القصب..

- بس ما تزعلش نفسك.. قفاك استوى من الضرب..
وصفر القطار.. وظهرت نرجس على باب العنبر تلوح
بمنديل كبير أحمر.. وازدحمت نوافذ العربى بالمرضى يردون
لها التحية.. وظل لطفى يدخن فى الركن.. وفتحت علبة
سجائرى وقدمت له سيجارة..

- تشرب..

- لا.. أشكرك..

- غير سجائرك مرة عشان خاطرى.. الواحد لازم

يغير حاجة في حياته عشان يبقى لها طعم..
تردد لحظة ثم مد يده وأخذ سيجارة، فقلت أباركه:
- دلوقت أنا متفائل.. بكره حاتغير حياتك كلها.. وبعد
بكره تغير تفكيرك.. والسنة الجاية تبقى واحد تانى.. غير
لطفى الغلبان الحيران.

ولم يجب وظل ينظر من خلال النافذة برهة ثم قال:
- نرجس عملت إيه امبارح..
- ولا حاجة..
- أنا ماقدرتش أستمر فى الكذب يا عوف.. كان لازم
أطلقها..

- عملت طيب.. ريحتها.. وريحت نفسك..
- أنا مش عارف حاتقول على إيه.. أنا عارف إن رأيك
عنى كان دايماً وحش..
- أبداً.. انت اتعلمت يا لطفى.. وكلنا بنتعلم.. مفيش
واحد فى الدنيا وحش وواحد كويس.. إنما فيه واحد
بيعرف.. وواحد ما بيعرفش..
- أيوه صحيح..

وتحرك القطار وبدأت المصحة تبتعد حتى أصبحت نقطة

صغيرة سوداء.. ولاحت الأراضى المنزرعة الخضراء عند الأفق.

وظللنا صامتين حتى دخل القطار محطة القاهرة.. ونزل المرضى لتستقبلهم أحضان أهليهم على الرصيف.. وبقيت وحدى.. أتلفت حولى فى الجهات الأربع.. وتذكرت فجأة أن أهلى ماتوا.. وإنى وحيد..

وذهبت إلى غرفتى التى غطاها الغبار.. وفى يدى سلة تفاح أهدتها إلى نرجس.. وجلست أنظر إلى خدود التفاح الأحمر وأفكر فى أشياء كثيرة..

تذكرت سنة ونصفاً قضيتها فى الصحراء.. وتذكرت الذين ماتوا.. والذين عاشوا.. وتوقفت طويلاً أمام صورة نرجس.. كانت تبدو كتفاحة ناضجة.. فى داخلها اللب.. وفى داخلها البذر.. حلوة.. ومرة..

كانت من المادة التى صنع منها البشر كلهم وأخسست بها قرية منى فى وحدتى.. قرية جداً.. وكان إحساسى حقيقياً.. خالياً من الزيف..

ووجدت نفسى أغمس القلم فى المداد لأكتب لها هذا
الخطاب.

عزيزتى نرجس..

لن أقول لك إنى أحبك.. ولكن سأقول إنى أفكر مثلك
فى مستقبل أخيك الصغير محمد.. وأرغب كما ترغبين فى أن
يكون دكتوراً كبيراً.. وأن يكون مديراً فى الصحة..
وصاحب بيت جميل فى الزمالك.. وأريد أن أحقق لك هذه
الأحلام..

وأقول أيضاً إنى مثلك.. أحلم.. وأرغب فى حياة جميلة
نافعة.. ولا أحقق من هذه الأحلام فى النهاية إلا.. بلوفر
صغير..

إننا نتشابه فى آخر الطريق.. كلنا..
لا توجد فروق تكفى ليحكم الواحد منا على الآخر..
وليصبح بعضنا قضاة.. وبعضنا متهمين..
كلنا سواء..

إنى سعيد بالأيام التى قضيتها مريضاً.. وسعيد بالأيام
التى عرفتكَ فيها.. ولن أنساها أبداً..
أشكركَ على التفاح..

إنه حلو شهى مثل خدودك.. وسوف يبقى طعمه فى فمى
طويلا.. هو وذكرياتك الحلوة..

المخلص
عوف

وألقيت الخطاب فى الصندوق.. وفى الطريق.. بدأت
أتذكره من جديد فى خيالى.. سطرًا.. سطرًا.. وكلمة..
كلمة..

هل أحببت نرجس؟

ربما.. من يدري..

وضحكت.. هذه المرة.. على نفسى.. على الشاطر
عوف.. صاحب النصائح التى لا تخيب.. فى دنيا الغرام.

القطار

القطار يسير.. وصفيحة الزيت المثقوبة تهتز، وجوالات
الدقيق تتمايل.. وعلى الأرض فلاح يحتضن أوزة ولبشة
قصب.. وأطفال ينامون.. ونمل بشرى مرصوص.. وأنا
أتشاغل بصحيفة في يدي.. وأمامي مقال طويل عن بطل
أمريكي بدأ حياته وفي جيبه ريال.. اشترى به مبيدًا
للصراصير وطاف على ربّات البيوت يدعو إلى طريقة
الاستعمال لمقاومة الحشرات، وجمع مئات الريالات، فتح بها
دكانًا ثم تطور الدكان إلى مصنع والمصنع إلى شركة،
والشركة إلى مؤسسة تدر الملايين.. ثم مشروع تجارى له
فروع في القارات الخمس.. وأصبح داني هوكي الفقير..

ملك الحشرات في أمريكا وصاحب مئات الملايين من
الدولارات.. وتنازل أخيراً عن نصف ثروته لجمعية رعاية
الكلاب في بوسطن.. ومات مبكراً على شبابه الغض
وعبقريته الفذة..

وكل هذا من ريال وعلبة من سم الصراصير.
وتهتز صفيحة الزيت إلى جوارى.. لتعود بي من الآمال
العريضة التي دفعني إليها المرحوم داني هوكي وتلقى بي
أرضاً.. بين الفلاحين الذين يمصون القصب ويتجشئون..
وأ تذكر نفسي..

لقد بدأت حياتي وفي جيبي ألف جنيه..
كنت أغني من دانيهوكي أكثر من ألف ضعف..
وفتحت متجرّاً للزيت وكافحت في عزم وصدق وأمانة..
ولكن الزيت أصر على أن يزنخ في مخازنه..
ودخلت معاصر البخار الحديثة من بلاد داني هوكي إلى
قريتي الصغيرة فطردتني أنا ومعصرتي التي تديرها بقرة إلى
عرض الطريق..

وانتهت قصة الألف جنيه إلى ريال..
كيف تحول الريال في يد داني هوكي إلى مئات الملايين
من الدولارات، وتحولت الألف جنيه في يدي إلى ريال..

أهـى الأقدار.. والصدف.. واللوتارية.. التى تحكم مصائر
البشر؟.

وما للأقدار ومالى؟!

إنى رجل قبضى سليم النية.. على ذراعى ثلاثة صلبان
وعلى صدرى وشم العذراء مريم.. ولم يشرق علىّ صبح لم
أصل فيه وأسبح باسم الأب والابن والروح القدس..
لم أسرق ولم أكذب ولم أزن ولم أخن جارى..
وحينما كانت أمى تموت والقسيس يهدى من روعها قائلاً:

اذكرى يا أماه آلام المسيح على الصليب..
كنت أبكى..

ولكنى الآن وأنا أتذكر حياتى وحياة الناس وأضع
الحقائق إلى جوار بعضها البعض.. أجد أن آلام المسيح
كانت شيئاً هيناً.. فلم يكن للمسيح أبناء.. وكان يموت من
أجل هدف نبيل تهون من أجله آلام أربع وعشرين ساعة
على الصليب..

أما أمى.. فقد عاشت على الصليب ستين عاماً.. وماتت
بدون هدف يبرر عذابها.. وخلفت طفلاً كبيراً بذراع معروقة
يعصر الزيت من تراب الأرض..
هيه.. يا أماه..

إن القطار يسير.. وفي هذا الكفاية..

القطار يسير.. ولا شيء يظل في مكانه أبدًا..

أنا والناس والشمس والنجوم وموج البحر ودود الأرض.. كلنا نتحرك..

وامتدت من النافذة ذراع تحمل قفة بها ذرة.. وأدخل فلاح رأسه في العربة.. ثم زحف بجسمه وسقط على الكرسي.. ومن خلفه ثلاث عيال.. وهو يصيح فيهم.. أوعو البيض..

وكان القطار قد وقف.. وباعة السميط يسدون النوافذ.. واللحم البشري يتكدس.. والصراخ يمتزج بالعويل بالصفير بالأحضان بالقبل.. وعجوز على المحطة يلوح بيديه:
- يا عوضين.. ماتنساش تقرأ الفاتحة لأم هاشم..
الفاتحة بأمانة يا وله..

والقطار يتحرك.. وصوت البلق يطرقع على الرصيف.. وصفير البخار يصك الآذان.. والفاتحة أمانة يا وله.. وشبح العجوز يتضاءل حتى يصبح علامة سوداء على الأرض.. والغيطان تملأ الناحيتين كبساط من سندس تنزلق عليه العربات.. وعويل السواقى.. ونقيق الضفادع.. وخوار البهائم.. والبيوت الطين.. وأعمدة البرق.. والدنيا التي تشبه شريطًا يتحرك.. وأنا في مقعدى أنظر في كلمة..

مشوهى الحرب.. المنقوشة على جدار العربة بالطلاء
الأسود، وأتخيل قصة هذه العربة منذ سنوات حينما كانت
تنقل الجرحى. والقنابل تنفجر حولها أيام العلمين..

وربما على. نفس الكرسي الذى أجلس عليه.. كان هناك
جندي ينزف ويموت.. والكرسي أمامه.. ونظرت أمامي.
كانت هناك امرأة ريفية طويلة عريضة الصدر في جلباب
أسود وطريحة.. كان وجهها جامداً أجعد، وعيناها
لا تطرفان.. وفمها مزموماً، وخداها غائرين..

كانت صلبة كالجدار الذى تشقق في أكثر من مكان
ولكنه ظل شامخاً.. وكان ذراعها الناحل كقطعة الخشب
يرفع صفيحة الجبن الثقيلة إلى رف العربة في خفة كأنها
ذبابة.. وعلى حجرها ينام طفل يمضغ قشرة برتقالة، وإلى
جوارها تقف بنتها في فستان أحمر تحمل كتاباً..

- أبويا جاي إمتى.. أم.. أبويا جاي إمتى؟
- أبوكى في البندر يا بت.. إيه اللى حايجيبه دلوقت..
- كل ما أقولك تقوللى أبويا في البندر.. هو حايقعد في
البندر طول عمره..

- وعاوزه من أبوكى إيه؟..
- عاوزه أوريله الفستان الأحمر، وكتاب المدرسة..

وابتسمت الصغيرة.. وفتحت كتابها.. وأخفت وجهها فيه
وراحت ترسم على الصفحة بشعرها الطويل الذهب.. ثم
أخذتها النشوة فراحت تقفز كالقطة.. وتهتف بأعلى صوتها..
زرع.. حصد.. كتب..

ثم وضعت الكتاب أمام أمها وأخذت تشير بإصبعها
الأبيض إلى الصفحة:

- شوفي السمكة.. والعصفورة.. والضفدعة..

ورفعت عينيها الواسعتين فجأة وتشبثت بجلباب أمها
الأسود هاتفة:

- أبوى جاى بكرة؟..

وتخلصت الأم من قبضتها ولم تجب..

وعادت الصغيرة تقفز.. وابتعدت.. وغابت في الزحام..
ولفت الأم وجهها بالشال وغمغمت.

- أبوكى تحت التراب.. يا عيشة يا بنت الجرجاوى..
راح له سنين..

وصفر القطار.. ثم بدأ يهدئ من سرعته وتوقف في أحد
المراكز..

ونفضت الأم واقفة.. على رأسها صفيحة الجبن وطفلها
على ذراعها.. والطفلة الأخرى في يدها.

وعلى الرصيف كانت عيشة ما زالت تقرأ.. بصوتها
الرفيع كالجرس.. زرع.. كتب.. وأمامها صفيحة الجبن
تأرجح على عنق نحيل.. وأما تتقدم في خطوة ثابتة..
وصفر القطار كأنه يقول معي..

كل شيء يهون كما تهون المسافات..

الزمن يمشى على كل شيء..

وكانت الأم تبسّم وهي تسير إلى جوارنا كأنها تقول هي
الأخرى :

- لم يمت أحد.. سوف يتعلم العيال..

وعربة مشوهى الحرب بمن فيها.. تتقدم عبر الحقول.

لا أحد

إلى جوار فراشى عشرات الزجاجات من أقراص
اللومينال والفيرونال، وألوان من الأمزجة والنقط.. بعضها
يقوى الأعصاب، وبعضها يشد العضلات، وبعضها يساعد
على النوم.. وبعضها يساعد على اليقظة..

وأنا راقد كالعربة المفكوكة في جاراج، كل جزء منها في
مكان.. كل شيء في وجودى مفكك حتى أحلامى.. حتى
أفكارى.. وأنا أجمع أجزائى بعضها على بعض كلما أردت
أن أصل إلى قرار صغير تافه.. مثل إضاءة المصباح..
أو إشعال سيجارة، أما البت في القرارات الكبيرة فقد

أصبح مستحيلاً.. على أن ألبأ للنصائح ومنشورات الصحف
لأبت فيها..

أصبحت أشبه سفينة جميلة قلاعها مشرعة.. ولكن بدون
ريح.. هناك جزء ما مكسور في آلة وجودي.. ربما كان سلكاً
رفيعاً يوصل بين عقلي وقلبي.. ويحمل إلى نفسى الكهرباء
والنور.. سلك رفيع انقطع بانقطاعه خيط حياتي.

إن حياتي حينها تعود إلى الآن.. تعود مقطعة الأوصال
كشريط من صور منفصلة..

صورة أبي وهو يعود من الدكان كل يوم فيقرع الباب
بعصاه.. ويستقبل أمي بسيل من الشتائم.. ثم يفتش عني في
البيت ويسحبني من أذني.. ويضربني علقه لأنني لا أستحم..
فإذا كنت في الشارع يضربني علقه لأنني لست في الفراش.
وفي الصباح يحملني من السرير ويضع رأسي تحت
الحنفية.. ويضربني قلمين لأسرع في لبس ثيابي.. ثم يضربني
شلوتاً لأهرول إلى المدرسة.. ثم يتلطف على الباب ويعطيني
ملياً لأصرفه..

وصورة أمي وهي تلقى عليّ تعليمات الصباح:

يا وله.. ما تنزلشي الحارة..

يا وله.. ما تلعبشي مع العيال الخسرانين..

ما تبصش للجيران.. اقفل الشباك..

ما تتكلمشى كثير.. اتأدب.. واقفل بقك..
ما تبحلقيشى فى البنات.. اختشى عيب..
ما تجريش كثير..
اقعد ساكت.. خليك حلو..
ما تاكلش فى رمضان.. تخش جهنم.. حرام..
عيب.. غلط.. حرام.. مش أصول.. مش تمام. قلة أدب..
قلة حيا..

سجن.. سجن.. غليظ..
وفى المدرسة صورة لسجن آخر.. أشد قسوة وغلظة..
المدرس يستلمنى بالضرب ويقول عنى إنى بليد.

والمفتش يسخر منى ويقول عنى إنى حمار..
والناظر يهددنى بالرقت ويقول عنى إنى غبى..
والامتحانات تلهث خلفى..

وأنا حيران بين سجن البيت.. وسجن المدرسة.. لا أجد
إلا الشارع أفر إليه كلما ضاقت أنفاسى.. فكأنى أرفع
رأسى من تحت الماء بعد غطس طويل لأخذ شهيقاً عميقاً..
وأيام الصبا..

وسن الثانية عشرة وهو يقبل بإرتجافاته وأحلامه..
واللذة التى تتفتح لى فى الفراش وأنا وحدى.. والغرفة

مغلقة.. ثم تستبد بى.. وتتحول إلى سجان آخر لا أقوى
على الهرب منه..

وأسمع الأولاد يقولون.. إنها عادة رديئة تهدم الصحة..
وأصغى إليهم فى فضول ورعب.. وقد عذمت أن أقلع عنها..
فإذا خلوت بنفسى تسلفت يدى وهى ترتجف تحت الغطاء،
وتشابكت أحاسيسى فى مزيج من النشوة والقلق والخوف..
وفى النهاية يتصبب على جسدى العرق البارد ويستولى على
الندم.. وأتصور وجهى فى الصباح وقد غدا أصفر مثل وجوه
الموتى.

والبنات وأنا أنظر إليهن من خلال المعلومات القليلة
التي عرفتھا من السينما والروايات وأحاديث الليل تحت
الفانوس مع شلة العيال..

وصوت أم كلثوم وهى تغنى.. يا ما أمر الفراق.. وأنا
واقف فى البلكون وحولى قصارى الزرع.. وتعريشة
اللبلاب.. وصفير قطار الدلتا من بعيد.. وأنا أحلم بأنى
ملك.. ملك كبير من ملوك زمان..

وسنوات الشباب الواحدة منها تجر الأخرى كقطار من
التعاسة..

ويوم السبت الذى لا أنساه.. وسكرتير المدرسة يقول
لى فى حزن:

- طلب مجانيتك رفض وسوف تطرد من المدرسة إذا لم
تسدد المصروفات..

وأبي الميت في البيت..

واليوم الأول في الشارع.. وقد تركت المدرسة خلفي
وذهبت أبحث عن عمل..

وورشة السيارات التي أعمل بها عتالا.. أتجول بالعفريته
الزرقاء بين الشحم والزيت وصراخ الأسطوانات.

ثم سلسلة من عشرات الأشغال أتنقل من الواحد إلى
الآخر، ملاحظ وابور طحين.. كاتب أنفار.. خولى عزبة..
كمسارى أتوبيس.. عامل في مسبك حديد.. أسطى في ورشة
خشب.. والفقر وهو يجرى خلفي في كل شغلة..

ويوم الأحد من كل أسبوع وأنا أتعشى عند عمى
العجوز.. وثرثرة آخر الليل.. والغرفة العارية الكالحة..
وعمى وهو يجذب أنفاساً من الجوزة وقد تكوم على مرتبة
قذرة.. ومضى يهذى بسيل من المواعظ والحكم:

- دنيا ما تسواش يا ابن أخويا.. كله محصل بعضه..
الفقر محصل الغنى والصحة محصلة المرض.. والعالى محصل
الواطى.. تندم على إيه.. على الفلوس؟.. الفلوس بيحبها
إبليس وياخذها إبليس.. وكله فانى.. اضربها صرمة تعيش
مرتاح..

ولكنه لا يضربها صرمة.. بل يضرب نفسه صرمتين..
ويشرب خمرًا أردأ من الخل.. ويعب من الجوزة القاتلة حتى
مطلع الصبح..

وسنوات الرجولة وهى تشرق على متأخرة بعد عمر
طحنته الآلام.. والنقود القليلة التى ادخرتها من لقمتى.. وقد
فتحت بها دكانًا للكتب القديمة.. والفراغ الطويل الممدود
وأنا جالس فى الدكان اقرأ الكتب التى أبيعها وأشتريها..
وأتغذى بوجبة من الحلاوة الطحينية كل يوم. وأقضى الليل
فى مقهى بيومى وأنا سرحان.. أفكر فى أسئلة كثيرة عن
حياتى وحياة الناس.. وماذا نريد كلنا من الدنيا.. ومن
أكون أنا..

أنا.. طلبة عبد الحميد رضوان..
أنا لا يمكن أن أكون رجلاً واحدًا هو عم طلبة.. صاحب
مكتبة طلبة.. إن الكلمات الأربع فى اسمى لا تعنى شيئًا.
أنا عشرات من الناس يسكنون ثوبًا واحدًا.
هناك عم طلبة الذى يصلى الفجر حاضر ويحلم بزوجة
غنية وفدادين وفيلًا فى شارع الهرم وغربة وحياة رتيبة،
واحترام ومقام ومعاش من الحكومة..
وهناك عم طلبة آخر يسب الدين ويسرق الزبائن

ويبصق على العمارات والفدادين، ويشرب زجاجة خل قبل أن ينام.

وهناك عم طلبة ثالث يقرأ الكتب ويفكر في الحياة والثواب والعقاب ويناقش قضايا مجتمعه..

وهناك عم طلبة رابع يفكر في الانتحار والموت وحرق الدكان وهجرة البلد.. إلى أين؟ لا أحد يعلم.. ولا حتى هو..

وهناك عم طلبة خامس ينام في الجامع ويسرح مع الدراويش ويرتل الأوراد والأذكار ويتوه في البخور..
وهناك عم طلبة سادس وسابع.. وعشرات.. كل واحد شكل..

وكل هؤلاء هم أنا.. أراهم الآن بنصف عين وقد تفككوا.. وتكوم كل واحد في ركن بالغرفة.. وقد انقطع الخيط الذي يربطهم في شخص واحد.
هيه.. يا عم طلبة..

أين أنت بعد المشوار الطويل الذي قطعته؟
أنت في الجاراج.. الموتور في مكان.. والعجلات في مكان.
والمقاعد في مكان.. والبطارية في مكان..

لقد تصادمت بجدار فتهشمت ألف قطعة.. وتبعثرت
أيامك..

هل تذكر كيف حدث هذا؟..

إنها قصة قصيرة تروىها الجرائد عادة في سطرين..
لقد تيقظت في الصباح.. وتركت منزلك وقد ملأت بطنك
بفطور دسم.. ولففت نفسك في بذلتك.. وسرت تترنح
نشواناً قانعاً بحياتك..

وبلغت الدكان من طرق ملتوية لتستمتع بالمشى..
ولتستمتع بوقع قدميك وهما تطرقان حصى الرصيف.
وفي الدكان جلست.. وتمطأت.. وصحت بأعلى صوتك:
يا وله. روح هات لى شاي من القهوة..

ووضعت ساقاً على ساق وأرخيت حبال تفكيرك.
وبين نعاس الرضا ورشقات الشاي وهزات ساقك
وانسدال جفنيك.. كنت ترى كل شيء في الشارع حلواً.
يا وله.. هات لى جوزه من القهوة.

وفتحت كتاباً على حجرك.. ومضيت تقرأ.. وتكركر
بالشيشة.. وتبيع وتشترى.. وتشخلل بالقروش في جيبك..
إن كل شيء على ما يرام..

لقد تغلبت على الجوع والفقر.. وهأنذا تضع ساقاً على

ساق في دكان تملكه وتبيع فيه وتشتري..
وأنت قرير العين راض عن نفسك.. فكل قرش تكسبه
هو بكذك وعرقك.. ولا أحد له عندك حاجة..
وتمددت في جلستك واحتواك الكرسي كأنه حضن..
وكررت الشيشة كالقطة عند قدميك..
يا وله هات الكتب من عند التجليد..
يا وله هات فحم..
يا وله امسح الجزمة..
يا وله نزل الكتب دول من على الرف.. وطلع الكتب
دول بداهم.. وروح هات السلم من عند عم محمود..
غبت ليه يا واد.. كنت فين.. انت رحت مت..
ما لقيتوش؟ طب قاعد ليه.. مستني إيه.. مستني طلوع
روحك.. شايف التراب راقات على الأرفف ازاي.. هات
المنفضة واطلع نفذه..
امشى.. اتحرك.. ماتبقاش ميت.. نزل اللبة من فوق
عشان تغسلها.. رجع اللوح الخشب ده مطرحه.. حطه فوق
الكرتونة.. شيل الزبالة اللي في السكة دي.. قشها بالمقشة
قوام.. طلع الصندوق ده بره.. اعدل الرف المايل ده.. كده
توقع الكتاب على الأرض يا حيوان.. أنت مسطول.. إنت..

ولطشته على وجهه.

وهرب منك كفأر مذعور وهو يغطي وجهه بذراعه..
وكان فمه يسيل منه خيط من الدم.. والتصق بالركن وهو
يتهته:

- والنبى هو الى وقع منى.. والنبى معلىش.. والنبى
ماعنتش.. دنا يتيم وغلبان وماليش حد..
وكفت يدك غن الضرب.. ولعلها شلت.. وهى تسمع
الكلمات الأخيرة..

لقد تذكرت أنك قلت نفس الكلمات.. منذ عشرين
عاماً.. قلتها لأسطى ورشة السيارات وهو يلوح فى وجهك
بقطعة حديد وأنت تلوذ بالركن وتحمى وجهك بيدك وترتعد
من الهلع وتتهته:

- دنا يتيم وغلبان وماليش حد..
وحملت فى وجه الولد فرأيت صورتك تعود إليك.
ونظرت إلى يدك كأنك تنظر إلى يد رجل آخر
لا تعرفه.. رجل متوحش..
وظل الدم يسيل من فم الصبى وحملته
الإسعاف.. ومرت عليك ليال لا تنام..
إن كل ما حدث إنك امتلكت دكاناً.. فتغيرت.. تغيرت

دون أن تدري.. أصبحت تدفع مع إيصالات النور والماء
وإيجار الدكان أقساطاً من ضميرك كل شهر.. وهكذا يفعل
أصحاب الدكاكين.. وكل التجار.. فأنت تكذب وأنت
تشتري الكتب... وأنت تكذب وأنت تبيعها.. وأنت تضغط
على مصروفاتك.. وتضغط على عنق الصبي الصغير اليتيم..
ولا فائدة..

وأنت تمسك بخناق الصبي كما كان الأسطى يمسك
بخناقك، إن الصبي يموت في المستشفى..

وسوف تكتب الصحف الخبر تحت عنوان.. ضرب أفضى
إلى موت.. وتروى الحادث في سطرين.

ولكن الحادث أكبر من مجرد خبر في صحيفة..
إنه نافذة واسعة مفتوحة على حياتك يا عم طلبة..
إن حياتك لم تكن كفاحاً.. وإنما كانت دوراناً في نقطة
واحدة.. كانت تكراراً..

في البداية كان هناك رجل فظ قاس يضرب صبياً
صغيراً.. وفي النهاية كان هناك رجل فظ آخر يضرب صبياً
صغيراً آخر.

لم تفعل شيئاً في العمر الذى عشته..
كنت مثل أبيك ومثل أسطى ورشة السيارات..

لم تكن موجودًا في هذه الأعوام الستين..
كانت هناك حوادث تحدث بمقتضى البيع والشراء..
ودكاكين تفتح وتغلق.. وتحتاج بين حين وآخر إلى
اعتداءات وجرائم صغيرة..

وكانت هناك جنایات تسعى إلى الأيدي التي ترتكبها..
ولو تصفحت الجرائد لوجدت حكايتك منشورة في
سطين.. في جريدة قديمة صدرت قبل أن تولد.. ولوجدتها
في كل جريدة.. وفي كل يوم..
أنت مجرد رجل مكرر..

رجل تخلقه التجارة في الدكاكين وتعيش له عمره، ثم
تقتله.. واسمه أحياناً بيومي.. وأحياناً خليل.. وأحياناً طلبة
اسمه.. أى اسم.. لأنه في الحقيقة.. لا أحد..

الشاطر

شقة خاصة..

غرفة استقبال شبيهة بالمخدع. المقاعد عريضة تصلح للجلوس والنوم في وقت واحد.. النور أحمر ضعيف..

الزوجة تجد نفسها لأول مرة في حياتها في هذا الجو المريب.. لقد خرجت من البيت بحجة الذهاب إلى الخياطة ثم ذهبت لتلاقي حبيبها في شقته بعد الحاح وإغراء متواصل لمدة سنة.. وبعد أن طمأنها الحبيب بأن اللقاء لن يكون سوى زيارة عادية.. في جو أخوى.. وأنه لا داعى لتصوير أشياء لن تحدث بالمرة..

ولكن الزوجة في حالة تعسة..

إنها تحس بالرهبة والخوف والقلق والتوتر.. وأكثر من هذا تحس أنها مهزومة أمام الجو الذي يلعب على أعصابها.. وأمام الصمت.. والخلوة السرية التامة التي تحيط بها. وهي لا تخشى شيئاً أكثر من خشيتها من نفسها. إنها تواجه ضعفها لأول مرة. وهي تحس بالتمزق والصراع..

أما حبيبها فهو في الركن يعطيها ظهره.. ويميل على جهاز بيك آب ليدبر أسطوانة.. ويتحدث بصوت رقيق حنون..

- هذه الأسطوانة من أحب الأسطوانات إلى قلبي..
أعرفين ماذا تقول كلماتها..

يا حبيبي.. لا تدعني..

إني أتوه في هذه الدنيا حينما أفارق ذراعيك..

إن حضنك الدافئ هو بيتي.. هو سكني..

هو أهلي الذين أحبهم..

هو أيامي كلها..

يا حبيبي أنت دنيای..

أنت.. أنا..

والمغنى صوته ساحر.. إنه إيطالى اسمه بيرجيو فانى..
يضع الإبرة ويدير الجهاز ثم يخفض صوت الغناء حتى
يصبح كالهمس..

تمضى لحظة.. يبتسم وهو ينظر فى الركن..
فى الواقع أنه كان يكذب طول الوقت.. فالأغنية
الإيطالية لا تقول هذا الكلام.. وهو لا يعرف الإيطالية
بالمرة.. ولكنه كلام خلقه بالمناسبة فهو شاطر.. مجرد شاطر..
لذته الوحيدة هى مجرد الشطارة والانتصار، وإجراء
عمليات الحب بنفس البرود الذى يجرى به الطبيب عملية
استئصال.. بدون حماس..

وهو يستخدم لسانه كالمشرط يقطع به اللحم الحى
ويستمتع بلذة غير إنسانية.. غير لذة الحب.. هى لذة
الخبرة.. والتفوق على الزوجات التعيسات الضعيفات.
يقرب منها ويمسك يدها ويقبلها.

تسحبها منه بسرعة.. وهى ترتعش كأنها أحست بلسعة.
- أتخافين منى.

- أنا لا أخافك.. ولكنى أخاف نفسى.. أريد أن أخرج
من هنا.. أريد أن أهرب.. أريد أن أرجع إلى بيتى.
تحاول القيام.. يمسك بيديها فى توصل ويقبلها فى حنان

دافق.. تتهاوى على كرسيتها من جديد.

- لا أعرف ماذا سيكون نهايتنا.. ما نهاية كل هذا.
ما الفائدة.. لقد أضعت نفسي.. كنت أعيش في تعاسة
واحدة فأصبحت أعيش في تعاستين.. كنت متزوجة من
رجل لا أحبه فأصبحت أحب رجلاً لا أتزوجه.. أصبحت
ممزقة بين رجلين.. وبين عذابين في كل لحظة.

تبكى في حرقة.. يأخذ رأسها في صدره.. ويربت على
شعرها.. ويمطرها بسيل من القبلات.. وهمس في أذنها.
ما الذى يدعوك إلى التفكير في التعاسة في هذه اللحظة
الجميلة.. وأنت معى وأنا معك.. وأنت تحبينى وأنا أحبك
واللحظة التى نعيشها ملكنا.. لحظة انتصار.. لحظة نصنع فيها
الحلم الذى طالما حلمنا به وتعذبنا من أجله.

- إنها ليست لحظة انتصار.. إنها لحظة ضياع.. إنها مجرد
لحظة سوف تنتهى وتخلف لنا الحسرة.

- كل شىء فى الدنيا لحظات تنتهى.. حياتك مع زوجك
لحظات تنتهى.. وسعادتك لحظات تنتهى.. وعذابك لحظات
تنتهى.. وأنت نفسك عمر ينتهى.. كلنا سوف ننتهى..
لا شىء سوف يبقى فى هذه الدنيا.

- إذن ما الفائدة.. ما فائدة أية لذة.

- وما جدوى أى بكاء.. لا توجد حقيقة تستحق منا

أن نبكى من أجلها.. الحقيقة الواحدة هي أنت.. وجودك
معى الآن.. فى هذه اللحظة.. لماذا لا نعيش هذه اللحظة قبل
أن تفلت من أيدينا.. ولا تعود.

يحتضنها ويتحسس خدها ورقبتها وصدرها ويتحدث فى
نبرات خافتة.

- إنى أتذكر الآن قصة طريفة قرأتها من زمان.. قصة
قسيس كان يزور جارتة الأرملة الجميلة كل يوم ويقرأ عليها
موعظة دينية لتحفظها من إغراء الخطيئة.. كان القسيس
يخشى عليها من جماها ومن حياتها وحيدة، ومن إغراء
الرجال، وفى أحد الأيام رآها تحزم حقائبها وقد أزمعت
السفر.. وقالت له إنها سوف تسافر بعيداً.. وسوف تغيب
عدة أشهر.. واستمهلها القس قليلاً.. ريثما يأتى لها بهدية
من الدير.. وغاب قليلاً ثم عاد يلف شيئاً فى عباءته..
ولما فتحت اللفافة.. صرخت فلم يكن ذلك الشيء سوى
جمجمة ميت متآكلة تساقطت أسنانها.. وقال لها القس فى
صوت رهيب.. انظرى يا امرأة.. انظرى وجهك فى المرأة..
أتشاهدين هذه الفتنة الساحرة.. أتشاهدين شعرك الفاحم
فى سواد الليل وأسنانك الناصعة كاللؤلؤ.. وفمك الأحمر
كفص العقيق.. وعينيك الصافيتين الزرقاوين كأنهما قبس
من نور السماء.. تأملى هذه الفتنة وانظرى فيها ملياً فما هى

إلا وهم.. ما هي إلا سراب ما يلبث أن يزول.. ولا يبقى
منك إلا هذا الشيء..

وأشار إلى الجمجمة المتعفنة المتآكلة التي تساقطت
أسنانها: .. هكذا أنت يا امرأة.. وهكذا نحن جميعاً.. وهكذا
الدنيا.. وهكذا لذاتها ومفاتها.. كلها أوهام.. باطل الأباطيل
الكل باطل.. لا شيء يبقى من الإنسان إلا كلمته الطيبة
وعمله الصالح.

خذى هذه الجمجمة.. انها هديتى التى اخترتها لك
لترافقك فى أسفارك.. وتذكرك فى وحدتك بكلمة الرب.
وأخذت الأرملة الجمجمة وسافرت وغابت شهرين.. ثم
عادت.. وفى يوم عودتها كان القسيس فى انتظارها.. وكان
متلهفاً.. يريد أن يعرف ماذا حدث فى هذين الشهرين.
وقالت الأرملة وهى تضحك طرباً.. أبتاه.. إنى لن
أكذبك لقد أنفقت هذه الأيام الستين بغاية الحكمة والعقل..
لقد كنت أنظر كل يوم إلى جمالى فى المرآة، ثم أنظر إلى
مصير هذا الجمال حينما ينتهى به الحال إلى هذه الجمجمة
العفنة.. فأبكى فزعاً وخوفاً على جمالى.. وأسارع إلى
الاستمتاع به والتلذذ بمفاته قبل أن تزول.. وهكذا.. كان لى
فى كل يوم من هذه الأيام الستين عشيق مختار أقضى الليل

بين أحضانه وأسكب بين ذراعيه شبابي.. وأسقيه حياتي قبل
أن يشرب الدود ماء هذه الحياة.

وسقط القسيس المسكين مغشياً عليه قبل أن تكمل
كلامها.

يسكت.. ويتزك المؤثرات الموسيقية تكمل القصة..
بينما يتحسس شعرها ويقبله.. يميل بفمه ويختلس قبلة خلف
أذنها.. فترتعد.. يهمس في صوت حنون.

- وأنت أيضاً تعيشين مثل هذه الأرملة مع زوج
لا تحبينه.. وجمالك يذبل وشبابك يذوى.. وعليك أن تختارى
بين هذا الموت عبثاً.. وبين هذه الحياة بين ذراعى.. بين حنايا
قلبي..

تجاوبه بصوت ضعيف فيه آخر أنفاس المقاومة.
- ولكن.. ولكنى أم.. وزوجة.. وزوجى هو صديق حميم
لك.. فكيف يمكن أن.. يا إلهى.

- صداقتى لزوجك مجرد كلام.. وكل حياتى فى الدنيا
مجرد كلام.. الحقيقة الوحيدة التى أعيشها بقلبي هى حبي
لك.. صوت قلبي يغطى على كل شىء ويحيله إلى وهم.. كل
شىء يبدو لى الآن وهماً.. كل شىء ما عدا حبي لك.. بينى
وبين الدنيا ستار يحجب عنه كل شىء.. حياتى فى هذه
اللحظة تشبه غرفة مبطنة بالمرايا، كل بقعة فيها تعكس

صورتينا نحن الاثنين.. ولا شىء سوانا.. لا شىء سوانا..
نعم.. أنا لا أشعر بشىء سواك.. أنا أعبدك.. أنا مجنون
بك..

يقبلها فى صدرها.. فتسبل جفניה وتسترخى فى شبه
إغماء.. وقد أحست أن الأمر قد خرج من يدها إلى الأبد..
وأن كل شىء أصبح مباحًا.. وممكنًا.

بعد مرور عشرة أعوام..
العشيق والزوج يلعبان النرد ويتبادلان حديثًا وديًا..
الزوج - أنا لا أفهم ماذا يقيقك إلى الآن بلا زواج..
أتظنها شطارة..
- شطارة طبعًا.. فأنا متزوج ولكن مجانًا.. (يسكت
لحظة) ولى أولاد أيضًا..
- وهل هذه هى الشطارة فى نظرك.. أن تعيش كاللص
تسرق من كل مطعم لقمة..
- تأكد أنى لا أسرق.. وإنما أنا مدعو فى هذه المطاعم..
وأكثر من هذا أنهم يحلفون علىّ لأشارك معهم فى كل طبق..
- أنت مخدوع فى نفسك.. أنت الآن فى الخمسين من
عمرك ولا بيت لك ولا أسرة ولا حقوق.. مثل الكلب

الضال.. وحينما تطمع فيك زوجة خائنة.. فإنها تطمع فيك باعتبارك بقشيشاً.. مجرد بقشيش.. قرش زيادة في مكاسبها كزوجة وأم وكامرأة لها حقوق.. وبعد أن تنفك في ساعة انبساط ترميك مثل العملة الماسحة.. وفي النهاية تعود إلى بيتك فلا تجد لك بيتاً.. والعمر يتقدم بك ولا حقوق تتراكم لك عند أحد.. بالعكس خسائر هي التي تتراكم على دماغك كل يوم.

- (في غيظ) أليس من الجائز أن تكون أنت المخدوع.. من أين لك الضمان بأن بيتك لك وحدك.. وأولادك هم أولادك؟

- أنا أعرف رأيك في كل النساء.. إنهن جميعاً خائنات.. والرجال جميعهم مخدوعون.. وأعرف رأيك في كل شيء بأنه أكذوبة.. ولهذا أشعر بالشفقة عليك لأن آراءك كانت دائماً أكبر عقاب لك.. ولم تكن عقاباً لنا.. أنا مثلاً لا أفكر ماذا تفعل زوجتي إذا تغيبت ساعة خارج البيت.. لأن زوجتي قطعة من بيتي.. وبيتي مجموعة من الروابط والواجبات.. ومن شأن هذه الروابط أن تصلح نفسها كلما أخطأ واحد منا.. والخير دائماً يتغلب على الشر مع طول الزمن والعشرة.. ونحن لسنا ملائكة لنحاسب بعضنا بعضاً.

أتظن لو أنك كنت الأب غير الشرعي لابن من

أولادى.. أكون ابنك.. أبداً.. إنه يكون ابنى.. بالرغم من
أى ادعاء تدعيه.. لأن البنوة ليست حقاً يولد فى
جرسونيرة.. وإنما البنوة عشرة وتربية وحب..

وتصور نفسك فى النهاية، وأنت محروم من كل أولادك.
وليس لك عليهم حقوق.. ولو قلت لواحد منهم.. أنا أبوك..
فإنه يبصق فى وجهك.. وهذه هى الشطارة التى تدعيها.
أنا لم يحدث أن اعتبرت نفسى شاطراً.. ولم يحدث أن
اعتبرت زوجتى مثالية.. أبداً.. أنا حياتى الزوجية بدأت
بالنكد والشقاق.. ولكنى كسبت زوجتى فى النهاية.. عاملتها
بحب واحترام وثقة.. ولم أفكر فى مرة أن أشك فيها..
اعتبرتها لصة وسارقة ولكنى أودعتها مالى وثروتى وكرامتى
ولم أشك فيها.. وكانت النتيجة أنها أحببتنى فى النهاية. من
الجائز أنها سرقتنى مرة.. ولكنى واثق من أنها خجلت من
نفسها فى المرة الثانية.. ثم كفت عن السرقة.. لأنها أحست
إنى أحترمها.

مالك تحملق فى وجهى هكذا.. العب.. ارمى الزهر..
- «فى ارتباك» أصلها شيش يش ولا أعرف أين أضع
القشاط.

- كيف لا تعرف وأنت الشاطر.. وحياتك كلها لعب فى
لعب.. ضع القشاط فى أى مكان.. إن أى مكان مثل الآخر.

- هل تعتقد أن زوجتك الآن لا يمكن أن تخونك.
- أعتقد أننا كلما كبرنا.. فنحن نكبر على الأشياء
الصغيرة في نفس الوقت.. ولسنا مثلك نصغر على الأشياء
الكبيرة.. هذا منطق لا يفهمه إلا أصحاب البيوت.. منطق
بعيد على أصحاب الخرابات من أمثالك.

- أنت قليل الأدب.

- أنا قليل الأدب.. وماذا تقول عن نفسك.. يا قليل
كل شيء.. ومع هذا فاعذرنى.. فقد تطاولت عليك.. أشفقت
عليك من غرورك فأردت أن أفتح عليك الدش لتفيق على
نفسك وعلى حقيقتك.. فقد يكون هناك وقت.

- (يفكر في أشياء أخرى).. نعم قد يكون هناك وقت..
ومن الضروري أن أتعجل حالى قبل أن يمضى الوقت إلى
غير عودة.. كلامك فى محله.

- العب.. ارم القشاط.. من فينا الغالب أنا أم أنت.
- لا أعرف.

بعد الحديث بيوم.

العشيق والزوجة منفردان فى إحدى غرف البيت
والزوج غائب.

العشيق - فاطمة، سوف أنتظرك الليلة، لابد أن تأتى.

- ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله.. انت تعرف أن هذه الحكاية انتهت من زمان.. وأنها كانت لحظة ضعف.. ندمت عليها وانتهى كل شىء..

- ولكنى أحبك.. ما زلت أحبك يا فاطمة.

- هل جنت.. ما هذا الحب الذى تتحدث عنه.. وما مناسبتة؟

- هل نسيت ما كان بيننا؟

- وماذا كان بيننا يا أحمد؟ لقد كان بيننا كذبة وخدعة.. وانتهت.

- لا تقولى هذا.. لا تشوهى اللحظات الجميلة التى عشناها معاً.

- (تضحك فجأة) أى لحظات جميلة أيها المجنون.. هل تفهم حقاً ما تقول، هل تدرك متى.. وأين.. وكيف تقوله؟

مثل هذا الكلام كان معقولا منذ عشر سنوات.. كان له جو موسيقى ونور أحمر، وكانت هناك شابة صغيرة طائشة تستمع لك.. فى هذه الظروف كان مثل هذا الكلام له معنى وله جدوى.. أما الآن.. وفى بيتى.. وفى الصالة.. تقف لتقول هذا الكلام المضحك.. وشعرك منكوش وشايب.. لا شك أنك جنت.

- (فى غيظ.. وقد بدأت تتجمع الدموع فى عينيه.. وقد عز عليه أن يكون محل سخرية) لم أكن أتصور أن تكلمينى هذا الكلام فى يوم من الأيام.

- أنا أدرك لماذا أنت متأثر إلى هذه الدرجة.. لأنك أصبحت عاشقاً عجوزاً.. لم تعد حصان الرهان كما كنت فى الماضى.. سقط حقك بمضى المدة وأفلست وسائلك.. لكنى ما ذنبى.

- لا بد أن أراك اليوم..

- حاول أن ترى نفسك أولاً فى المرآة.. وعد إلى عقلك.. كفى جنونا..

- أنا أعرف أن عشر سنوات مضت منذ ذلك اليوم.. ولكنى ما زلت أحبك.. وما الفرق.. بضع شعرات كانت سوداء فأصبحت بيضاء.. ما الذى يمكن أن تغيره هذه الشعرات؟

- أنت مغرور.. كل حياتك غرور فى غرور.. إنك لم تحب أحداً.. لقد كنت دائماً تحب نفسك.. ما الذى جعلك بعد عشر سنوات تعود فجأة لتقول.. أريد أن أراك. أهو الحب؟!

لا.. إنه الغرور.. النزوة المتسلطة عليك بأنك الفتى الأول الذى لا يرفض له طلب.. إن علاجك الوحيد هو

المرآة.. اجلس أمامها في الجرسونيرة كل ليلة.. وتفرج على
نفسك.. على العشيقة الوحيدة التي أخلصت لها طول
عمرك.. أنت مسكين..
يفاجأ بهذه الكلمات.. وينخلع لها فؤاده.. ربما لأنها
صادقة.

يصمت ويتخلل شعره بأنامله ليخفى ارتجافها.
يدور المفتاح في الباب ثم يدخل الزوج في خطوات
بطيئة.. شكله يدل على أنه مريض.. ويده على بطنه.. وهو
يتلوى من مغص حاد.

- فاطمة.. قربة الماء الساخن.. على عجل.. أرجوك..
(ينظر إلى أحمد).. أحمد.. مالك واقفا هكذا تحمق في المرأة..
تتفرج على جمالك السابق.. فتاك يا ولد فتاك.. لم يبق
إلا أن تصبغ شعرك وتصبح جيمس دين.. ما أشد ما يحرك
منظرك إشفاقى.. إنك تذكرني بأرئيست الحرب التي راحت
أيامها.

قربة الماء الساخن يا فاطمة.. آه يا بطنى.
يتحول البيت في لحظة إلى خلية نحل محورها الزوج ومن
حوله حلقة متماسكة من الأولاد والبنيات والزوجة.. وفي كل
عين لهفة.. ودمعة حائرة.. وسؤال قلق.

إنهم جميعًا مشغولون بأبيهم.. وكل واحد يحاول أن يسبق الآخر إلى تلبية طلباته. وهم ينسون العشيق الذى يتقلص إلى شبح واقف فى الظل.. لا أحد يلحظ وجوده.. مجرد كلب جربان معدوم الحقوق.. حتى الابن الذى يدعى أبوته يبكى أمامه على رجل آخر.

وهو ما يزال ينظر فى المرأة.. باحثًا عن رجل قديم كان يعرفه منذ عشر سنوات.. رجل كان ينتصر دائمًا فى كل معركة.. ولكنه لا يجده.

ولعله يشك الآن أن هذا الرجل كان موجودًا بالمرّة.. وأنه انتصر انتصارًا واحدًا حقيقياً.

صاحب الجلالة

وراء الكواليس.. الرواية لم تبدأ بعد والستار مسدل..
والممثلون في ثيابهم المسرحية يروحون ويحيثون يهمسون
بأدوارهم.. أحد الأبطال في ثياب الكاهن لا يفكر في دوره
إنما يتحدث عن حماته.. وعن أجور المساكن.. ومصاريف
الأولاد.

الملك يجلس بثيابه الفاخرة على صندوق سكر مقلوب
يصغى إلى حديث الكاهن ثم يهمس:

- إدينى نص الساندويتش اللى فى إيدك.

- ما تبعت يا أخى تجيب لك ساندويتش من البوفيه
وتبطل أمور الشحاته دى.

- ادينى قطعة طيب.. قطعة.. أعوذ بالله.. هو أنا باطلب

عزبة.. دنا باطلب قطعة.

- ما انت واكل معايا الضهر.. لحقت تهضم الأسمنت
الى كلناه.

- واكل معاك مين.. إنت مسطول.. دنا هنا من الصبح
على لحم بطنى.. قاعد أحفظ فى البروفة وأمثل فيها لما اتنبح
حسى.. عمال أزعق وأقول.. طيفون طيفون يا وزيرى
الأبله أما زلت ترصد النجوم.. وتقرأ كتاب الموتى عن
الغيب.. ها.. ها.. أنت نعلان.. أفق.. افتح عينيك
جيداً.. لا غيب هناك... ليس هناك سوى أنا وأنت.

وطول النهار على الحال ده.. قاعد مربوط قدام المخرج
زى مكنة الغنا.. يدورنى بإيده.. أقف وأقول.. ها.. ها.. ها..
إنت نعلان.. بروح موقفى تانى.. ويقول لا.. مش كده..
بصوت واطى شوية ومليان.. وعريض.. وبلاش ها.. ها..
ثلاث مرات.. كفاية مرتين.. ويروح مدورنى تانى.. وأنا
قاعد بطنى تزغور وتمغص.. وتقرص.. وكل ده عشان الفن..
الفن.. شفنا الفقر عشان الفن.. وشحتنا عشان الفن..
والآخر شفنا الجوع.. ولسه.. ياما حانشوف..

تصدق بالله يا أحمد.. مش أنا قاعد قدامك دلوقت
وباضحك.. لكن بيتى بينحجز عليه.. وعفشى بيتباع بالمزاد
العلنى، والناس واقفين فى الحوش كل واحد يزود على

التانى.. ناس ما أعرفهمش بياكلوا لحمى ويشربوا دمي
ويبيعوا حياتى.. وبعد الحفلة حاروح مالاقيش لى بيت..
مراى مطلقه فى بيت أبوها.. وأوده النوم على الخشب..

صعبان علىّ الفار الى كان كل يوم بيتعشى معايا.. مش
حايلاقى أكل النهارده.. ذنبه إيه الفار.. مسكين.. مسكين..
أصله فار أرتيست.. لازم يجوع زى صاحبه.. فار فقيرى..
ها.. ها..

إدينى قطعة بقه من السندوتش.. بطنى بتقرص يا سلام
ده انت فرعون صحيح.. لازم عاوز تتقن دورك يا ناصح..
حمى الفن برضه.. مش كده.

يشد شعره من الغيظ.

- الفن.. الفن.. أروح منه فين..

ينظر فى الساعة..

- دورى جه. أما أقوم بقه.. وعوضى على الله فى
الساندوتش.

- يشد قامته ثم يقف منتصباً.. دماغه تكاد تخرق
السقف.. ويرسم على وجهه عظمة الملكية وجلالته
وجبروتها.. ثم يخطو إلى المسرح فى خيلاء وقد أمسك
بصولجان الملك فى يمينه.

تمر دقيقة ثم يسمع صوته الجهير الممتلئ يهز جنبات المسرح:

- أين حكيم القصر.. أين شيخ الكهان.. أين حامل أختامى.. أين قائد جندى.. أين أولياء الأمر فى منف ليسمعونى.. إنى أفتح خزائنى اليوم ليفيض ذهبى وخبزى وقمحتى على كل مصر فى طول البلاد وعرضها حتى لا يبقى على الأرض جوعان.

إنى آمركم بهذا.. أنا ملك مصر المعظم.. وواهب الطعام.. والخبز للجميع.

يبتسم صديقه من خلف الكواليس وهو يصغى إلى كلماته.. وتتندى عيناه بالدموع.

جرسون

بنى جورجىادس ميخاليدس بسكاليدس جرسون..
إنسان غير مهم.. فالمجتمع يستطيع أن يعيش بدون
جرسون.. والأرض تستطيع أن تدور حول نفسها كل يوم
كالمعتاد بدون جرسونات على سطحها.. ولكن بنى
جورجىادس ميخاليدس ينظر إلى المسألة نظرة أخرى
جديدة.. ينظر من خلال فوطته فيرى الدنيا كالبار الكبير
لا يستطيع أن يستمر لحظة واحدة بدون جرسون..
من السهل عليه أن يفهم حياة بدون ماء.. ولكنه
لا يستطيع أن يفهم حياة بدون بيرة.. وأسعد لحظاته
حينما يتلفت حوله فيجد عشرات من السكارى هو الوحيد

بينهم الذى يحتفظ بوعيه.. أى تضحية أن تكون زامر الحى..
ولا تطرب.. أن توزع الانبساط والضحك على الناس
وتقنع بالعبوس، والتجهم وعبد الطلبات.. ولكنها المهنة
الإنسانية.. لقد ولد يجرى فى عروقه النبيذ.. ولد جرسوناً
عريقاً من البداية.

وأنت إذا دخلت عليه البيت الآن وجدته يثرثر إلى
زوجته كاترينا فى سيل من الكلمات الرومية التى تتساقط
من فمه كالفقاقيع..

وأنت لن تفهم شيئاً من هذه الهستريا، ولكنك سوف
تحس أن ينى جورجىادس ميخاليدس سعيد.. وأنه قد أفرغ
نبيذ البار فى جوف الزبائن..

وسوف يخرج ينى جورجىادس أنيقاً رشيقاً لامع الشعر.
إنه ذاهب إلى البار وقلبه خاشع.. كأنه ذاهب إلى صومعة
أو معبد.. وهو يترنم فى الطريق بنغمة راقصة.

واحد زبيب قبرصى دوبل.. ثلاثة ويسكى بالصودا..
ياتينا.. ويمط فى كلمة ياتينا.. ويتأود.. فهى اسم البارمان..
صراف الخمور.. وموزع اللذات.. وحبیب العمر..

ما أصغر الدنيا.. بارمان من جنوه وجرسون من أثينا فى
بار بمصر.. جغرافية العالم على مائدة واحدة..

ويدخل البار كعادته.. فيلقى ابتسامة عريضة على كل
الغرباء كأنه يعرفهم من سنين.. ثم ينظر إلى الركن..
هذا هو الشاعر والى، وحوله ثلة من الشعراء المعاتيه
يشربون، والشاعر يلوح بذراعيه ويقول شيئاً، والجالسون
من حوله يصفقون وهو لا يفهم إلا كلمة يرددها الشاعر
بين وقت وآخر.. هي كلمة.. خمرة.

يا خمرة يا ملهمة يا عصير النفوس.

يا خمرة يا مجرمة يا طاحونة فلوس..

بتتورى المخ زى الفانوس..

وبتاكلى فى الجتة زى السوس

يا خمرة..

يا دم.. جوه الكئوس

مين اللى باعك..

يا ساعة ناقصة التروس..

بتوقف العمر قبل الأوان..

يا ساقى هات السم هات الشراب

هات السبرتو، ولع الأعصاب

هات العذاب..

أنا جاي أبيع الذهب..

بسعر التراب..

وأبيع سنين الشباب

من غير تمن..
يا ساقى.. هات.. هات..
يا خمرة.. أيوه تمام يا مسيو والبي هو ده الشعر
الأصولي..

ويضيع الشعر في الضجة، وفي صيحة بني التقليدية.. اثنين
قبرصى دويل.. ياتينا.. والفوطة تتأرجح في ذراعه وهو
يتلوى كمصارع ثيران، والجو يعبق بالدخان.. والعطور
الباريسية ورائحة المزة والشواء..

وفي ركن قصى مظلم يجلس شاب مع فتاة وهو يكاد
يحيطها بذراعيه، ويكاد يقبلها وهو يتكلم، وبني ميخاليدس
يتراقص حوله كالذبابة، ويملاً له كأسه كل دقيقة.

- اشربي يا قمورة.. دى القزازه لسه بحالها..
- أنا دماغى بتلف يا فؤاد.. وعينى بتطلع نار..
- أنا عاوز النار دى يا حبيبتى.. أنا روحى تلجت من
البرد، من الوحدة.. أنا عاوز النار دى عشان تدفينى..

- هىء إنت وحيد. إنت.. يا نارى منك.. يا ويل اللى
تقع فى إيديك، بتاكلها وتتعشى بيها.. يا ديب إنت..
- أنا ديب أنا؟

- أيوه ديب بتاكل الفراخ.. هىء أنا بحبك يا ديب..

- وأنا بحبك يا فرخة..
- وأنا بحبك يا ديب.. أنا.. أنا.. تعبانة.. عاوزة أقوم..
- نروح فين؟..
- نروح بعيد عن الناس.. في الخلا.. عاوزة أضربك
واقطعلك هدومك..
- وبعدين؟..
- معرفش.. بعدين يا ديب..

ويضحكان ويتمايلان وتتلامس الخدود وتضع
الضحكات في الضجيج، وفي طرقة الزجاجات التي يفتحها
ينى..

وفي ركن مظلم.. رجل ثان لا يشرب وإنما يحرق التبغ
وينفث الدخان..

إنه يجلس وحده منذ ساعة.. يشرب القهوة.. ويمز
بالسجائر، وقد شحب وجهه فأصبح كتمثال من الصلصال
الأصفر.. وتقاطع عليه النور والظل كلوحة بارزة من الرسم
التكعيبي..

وينى لا يهتم من هذا الرجل إلا أنه لا يشرب..
لا يريد أن يفقد وعيه.. وهذه صفة لينى وإهانة لكرامته..
وهو لهذا يروح ويجيء ويتأرجح، وقد زاد من ابتسامته

إلى الضعف، وبالغ في انحناءاته حتى كاد يدور كالبرجل
حول نفسه، ولكن دون جدوى.

لقد رفع الرجل إلى فمه كوبًا من الماء المثلج، ولا شيء
غير ذلك.. أهو فنان.. أهو شاعر.. أهو فيلسوف.. أهو
مجنون.. أهو رجل نصاب.. أهو تاجر مفلس.. أهو زوج
مخدوع؟. ولكن هؤلاء هم الذين يشربون..

ليس هناك إلا تفسير واحد.. أن يكون جرسونًا..
جرسونًا من الهند أو الحبشة أو مراکش أو اليونان أو أى
مكان على الأرض.. ليذهب إلى الشيطان إذن.. إنه لا يهم
ينى فى شىء..

والليل يتقدم والموائد تنفض ولا يبقى إلا ماسح
الأحذية وبائع اللوتارية وبائع الفستق.. ورجل مقطوع
الساقين يزحف على قطعة من خشب ذات عجلات عند
الباب.. ويمد يده ليني يطلب إحسانًا فيصيح نينى فى شراسة:
- انتى مسكتو واحد جنيه النهارده من الشحاته.. انتى
أغنى منى.. الخشبة دى محشى فلوس، والطاقيه دى محشى
فلوس.. انتى تبنى عمارة من نينى.. انتى تخرب بيت نينى..
امشى ياللا.. امشى.

وهو يدخل البار ويجمع الجرسونات ويتقاسم معهم
البقاشيش، ثم يخلع اللبس الرسمى ويرتدى لبس الخروج

ويغلق البار، ويسير في الطريق وهو يصفر.

- خريستو زمانتو راح البيت.. بيقفل البقالة بدرى..
مغفل مفيش مخ.. لازم يفتحه لنص الليل.. وكاترينا زمانتو
نام زى الجاموسة.. وكاتى وستلا زمانتو بيرقصوا لسه فى
الكباريه.. بنات تمام.. ولاد ينى، أصولى دول.. بيمسكو ميت
جنيه فى الشهر.. وميشو حمار قليل الأدب.. أقول له افتح
دكان.. افتح دكان برسيم افتح دكان سبارس.. افتح دكان
زفت.. افتح دكان قطران.. فايده مفيش.. مخ خشب..
موش ابن ينى ده موش ابن ينى.. أوخ.. أوخ.. من ميشو.

دقة قديمة

قادنى الباشكاتب العجوز إلى غرفته وهو يفتح ذراعيه..
ويكاد يأخذنى فى حضنه:

- والله مراحب.. والله سلمات. شايف أودتى واسعة
ازاى زى ملعب الكورة.

وابتسم فى بساطة وهو يدير رأسه نحوى ويفتح فمه
فيبدو طقم أسنان يهتز داخله:

- تعرف بقالى كام سنة هنا؟.. ثلاثين سنة بالتمام..
اتفضل.. اتفضل.. أجيبلك قهوة.. حاجة ساقعة طيب..
ولا ساقعة كمان.. طب خد قزقز.. يا سلام.. وجاى من

المنيا طوالى.. ده مشوار مليح.

وبدا يقزقز ويضع فى حفانى كبشة من اللب.. وكان يقزقز
ويتكلم ويضحك ويهز رجله ويديه فى وقت واحد.. وأنا
أتأمله فى استغراب.

كان كالح البشرة قصيرا بطينا.. لا يكف عن الحركة..
وعجبت كيف يعيش إنسان فى غرفة مغلقة لا تدخلها
الشمس ثلاثين سنة متوالية يزاول عملا واحدا لا يتغير كل
يوم.. ومع ذلك يجد القدرة على الضحك.

وبدأت أختنق برائحة التراب والهواء الفاسد.

- اهوا مكتوم أوى فى الأودة يا صبحى أفندى.. مش
ممكن نفتح شباك.

- شباك إيه يا راجل.. ده الدنيا تلج.

وكان التراب قد وصل إلى حلقى فبدأت أعطس.

- أصل التراب هنا زى النشوق.. أنا بقالى ثلاثين سنة
أعطس زيك كده.

وسكت قليلا ثم أردف:

- يا سلام.. من المنيا!.. ده مشوار مليح.. كنت ابعت
لى يا أخى وأنا كنت قضيت لك حاجتك وجبتها لحدك فى
المنيا.. بدل ما تتعب التعب ده كله.

- يا سيدى كتر خيرك..

- ليه.. كتر خيرى ليه.. دنا نفسى أسافر.. دنا قضيت
عمرى ما غيزتش الكرسي إلى قاعد عليه.. ده أنا عندى
المنيا دى زى أوربا.. يا سلام.

وقام من كرسيه.. وهرش قفاه ثم أخذ يتلفت منادياً:
- يا مندور.. يا مندور.. يا خويا سايبني هنا لوحدى
زى الغراب.. ولا ساعى.. ولا فراش.. ولا حاجة.. يعنى
لازم أحط الكرسي واطلع أجيب الدوسيه من عش
السحالى إلى فوق.. نهايته.. عشان خاطرك.. أصلك راجل
طيب.

وترك مكتبه ورشق القلم الكوبيا فى أذنه وأخذ يحملق فى
الحائط ويعد على أصابعه:

- وسيادتك بقى من مواليد كام؟

- من مواليد سنة خمسة.

- يا سلام.. يعنى من أيام هوجة عرابى.. دنت أتاريك
راجل مخضرم.. ده صحيح الدهن فى العتاقى.

مين يا خويا اللى بيعكرت ورا الدولاب ده.. يا وله
اتكن بلاش شقاوة.

- هو فيه حد معانا.. والا إيه؟..

وضحك الباشكاتب.. وظل فمه مفتوحاً برهة.. وعيناه
الساذجتان تحدقان في وجهي من تحت النظارة.

- تعال يا حودة سلم على عمك.

ونقر على المكتب.

- اظهر وبان.

وأطلت عين صغيرة من خلف الدولاب.. أعقبها وجه
غطاه التراب وطفل يتدلى قميصه الأحمر خارج البنطلون..
وقد احتضن عود قصب.

- تعال سلم على عمك.. واديله عقلة قصب.

وتقدم مني الطفل في خجل وقدم لي عود القصب كله..
وكان وجهه لطيفاً بريئاً.

- ده يبقى بسلامته محمد ابني.. كل يوم يا سيدى لازم
يشبط في ويعيط.. ولازم يبجي معايا الديوان.. عاوز يطلع
باشكاتب.. وتبقى له إدارة وإمارة زى أبوه.. الأقرع..
الزلبطة.. ده.

وأخذ يمسح على رأس طفله.. وكانت مخلوقة بالموس..
وناعمة كالعجورة.

- أنا دائماً أخلق للولاد نمرة واحد.. مش أحسن برضه
نضافة.. وأنا كمان بخلق نمرة واحد. شوف..

وخلع طربوشه ومسح على رأسه:

- الواحد تبقى رأسه هاوية..

وضحك في سذاجة.. وفتح درج المكتب وأخرج منه
خيارة.. دسها في يد الطفل:

- خد ولا تقولش لحد.. أجرى أقعد على المكتب
بتاعك.. وحرر الدوسيه.. وريني الشطارة.

ونظر الطفل إلى الخيارة متردداً.. ثم اختطفها.. وهرب
مبتعداً.. وهو ينظر إليها كأنه لا يصدق أنها أصبحت ملكه.
وانكفاً صبحى أفندى على مكتبه من جديد والضحكة
ما زالت تلعب على وجهه.. وأخذ يدندن أغنية قديمة.
وأعجبه صوته فأخذ يبط في المقاطع ويتأوه على طريقة
الحمولى.

وبالرغم من أن الغرفة كانت مقبضة والجو راكداً..
والتراب يزكم الأنوف.. فقد بدأت أبتسم، وانتقلت العدوى
إلى فرحت أهرق على النغم القديم.. وغاب هو في دوامة
الفن وأخذ يطوح رأسه.

- يا سلام.. إيه الطرب ده كله يا صبحى أفندى.. ده
انت سلطان.

- يا سيدى الله يخليك.. ده بس من ظرفك.. شوف
يا أستاذ.

وأدار رأسه إلى ناحيتي.. ونقل القلم الكوبية من أذن إلى
أذن:

- شوف.. اوعى تصدق ان فيه غنى دلوقتي.. ده كلام..
الغنا كان زمان.. كان المغنى يقعد على التخت ويقول.. يا..
يا.. يا.. يا أى حاجة تيجى على مخه.. إنما طرب.. متقدرش
تقعد على بعضك.. ويمكن يقعد يقول.. يا.. يا.. يا.. لغاية
الفجر وبعدين يقول.. يا قمر.. ومع كده ما تقدرش تسببه..
وتبقى قاعد عطشان ومترضاش تشرب.. فن.. فن.. مش
الكلام البفاضى المايص بتاع دلوقت.. تفتح الراديو.. تلاقى
واحدة بتقولك.. تعالى ياالله.. ياالله.. تعالى ياالله.. ياالله.. تعالى
ياالله فين عاوزه أفهم.. تعرف تقوللى فين.
وعاد يهرش قفاه وينقل القلم الكوبية من أذن إلى أذن
ويقلب الدوسيهات.

- تعالى ياالله.. فين.. تعرف تقوللى يا مبارك..
ونظر إلى من تحت نظارته ثم عاد إلى الدوسيهات:
- زمن.. هو أصله زمن.. نهايته.. نرجع لشغلنا أحسن..
بتقول يا سيدى اسم الكريم.. صالح.. صالح.. الـ..
الشبكشى.. هيه.. هيه أيوه يا سيدى آدى الملف اللى
عايزينه.. أنا عطلتك شوية.. مش كده.. لكن خلاص
هانت.. أصل اخواننا هم اللى بيكركبوا على الشغل الكثير

ده.. كل حاجة خد يا صبحى أفندى.. هات يا صبحى أفندى.

- إنت أصلك راجل أمير..

- يا سيدى ده من ظرفك.. يا سيدى ده من أصلك..
وغاب مرة أخرى فى الورق يكتب ويخرج طرف لسانه
من الحماس.. ويمسح رأسه ويتطوح.. ثم رفع عينيه أخيراً فى
ارتياح:

- الحمد لله.. خلصنا.. يالله بينا بقى.

وبحث عن الطربوش حتى وجده خلف الدولاب..
- أما شيطان صحيح.. بقى يا واد مش لاقى حته
ترمى فيها مصاصة القصب غير طربوش أبوك.
وسحب طفله من أذنه.. وعاقبه بقبلة رنانة على خده:
- ترمى الزبالة فى طربوش أبوك يا كلب.. أنا لازم
أرئك علقة سخنة.

ولم أر على وجهه بوادر لهذه العلة الساخنة.. بل كان
وجهه سمحاً طيباً يفيض بالإشراق.

وحينما وقف على الباب يحادثنى ويروى لى متاعبه كان
ما يزال يبتسم.

- تصور يا سيدى.. أن المفتش جه وجرد المخزن وطلع

عجز في العهدة مئة وخمسين جنيه خصمهم منى.. وبقالى
سنتين بقسط فيهم.. حاعمل إيه.. أصلى راجل باشتغل
بالله.. أمضى يا صبحى أفندى.. أبصم يا صبحى أفندى..
استلم يا صبحى أفندى.. سلم يا صبحى أفندى.

كان وجهه صافياً وهو يتحدث عن الظلم وعيناه مليئتان
بالطيبة.

وخيل إلى أن أى عذاب لا يقوى على هزيمة قلبه
الطيب..

وحينما مضيت وحدى إلى باب المديرية.. ووقفت أدخن
تحت الجميزة العتيقة.. كنت أفكر فى هذا الإنسان..
وأتساءل.. ماذا جنى فى مقابل طيبته.

وكان الموظفون يخرجون جماعات صغيرة ويتفرقون عند
الباب.. ثم شاهدت رجلى الصغير يدور فى الحوش وقد تعلق
الطفل بينطلونه.. وكلما خطا خطوة.. اجتذب رجلا إلى
موكبه حتى إذا اقترب من الباب كان قد تحول إلى مظاهرة
لا تسمع فيها إلا جملة واحدة تتكرر كل مرة بأسلوب.
مبروك يا صبحى أفندى.. الحمد لله يا صبحى أفندى..
تعبناك يا صبحى أفندى.. تشكر يا صبحى أفندى.. ممنون

يا صبحی أفندی.. اطلب يا صبحی أفندی.. مرسی
يا صبحی أفندی.. جايك يا صبحی أفندی.. أمرک
يا صبحی أفندی.

وقرأت الجواب على سؤالی.. مكتوباً على وجوه الناس.

الماء و الزيت

كان يقول لها بانفعال وهو يقبض أصابعه ويبسطها:

- إني أعيش في حيرة.. في شك دائم.. وعذاب.. لقد
مرت على علاقتنا سنة.. وما زلت كما كنت في البداية..
لا أعرفك.. لا أعرف إن كنت تحبينني أم لا.. ما زال ستار
التكلف قائماً بيننا.. لم تحدثيني بكلمة واحدة عن ماضيك..
عن حياتك.. عن آمالك.. وأحلامك. ما زلت تنظرين إلى
نظرتك إلى رجل غريب تعاملينه بحذر وتحفظ وارتياب.
وفي الوقت الذي أغير فيه حياتي كلها من أجلك وأترك
أصدقائي وسهراتي.. وأعيش في حلم مستمر أنت بطلته..

أجذك تزدادين بعدًا عنى كل يوم.. وتعامليننى بجفاء..
لقد كان لى أمل واحد طول هذه السنة.. أن أفهمك
كما أحبك.. أن أحس بأنك تمنحيننى حق الصديق على
الأقل فتشركيننى فى مشكلاتك..

ولكن ها نحن أولاء غرباء ينظر كل منا إلى الآخر كأنه
ينظر إلى كتاب.

إن القبلات التى نتبادلها تشبه الدق على أبواب مغلقة
لا تفتح أبدًا، والعناق لا يكاد يختلف عن المصافحة..
إنى ما زلت وحدى.. وأنت ما زلت وحدك..

إننا كالزيت والماء.. نعيش جنبًا إلى جنب فى زجاجة
واحدة..

ولكننا لا نختلط أبدًا مهما رجت الزجاجة..
هل هذا هو الحب الذى كنت أحلم به؟..
أريد أن أفتح قلبك لأعرف الجواب.. إن شفئك
لا تلتكمان.

إن الحكم بالإعدام يريح لأنه حكم.. أما الحياة فى
القفس أمام قاض لا يحكم ولا يفض الجلسة فهى
لا تطاق..

قولى لى.. لا أحبك.. لأستريح..

كان يتكلم بانفعال.. وسكت وهو ما زال يقبض أصابعه
ويبسطها..

ونظرت إليه نظرة طويلة مسكينة.. وحاولت أن تتكلم
ولكن الكلمات لم تسعفها..

ودمعت عيناها ونظرت إلى بطنها العالية.. إلى الجنين
الذى يتحرك فيها منذ سبعة أشهر.. وقالت فى تأثر:
- أنا لا أفهم فى الكلام.. أنا خرساء لا أعرف كيف
أدبج الأحاديث.. لا أعرف كيف أصنع أحاديث مزخرفة..
وأقول لك أحبك.. أعبدك.. أهيم بك.. لا أنام.. لا أكل..
لا أشرب..

لقد تعودت أن أصنع لك حياتك دون أن أعلن عن
صناعتي. ألا تجد أشياءك مجهزة.. وطعامك معداً.. وأثاث
بيتك نظيفاً.. وقمصانك معطرة؟

ألا تجدنى إلى جوارك وأنت مريض.. ملهوفة عليك
وأنت غائب.. فرحة كالطفلة.. وأنت سعيد؟

وهذا الذى صنعه سبعة أشهر من لحمى.. أليس حباً؟
وأشارت إلى بطنها.. إلى الجنين.. إلى الزيت والماء..
الذين امتزجا فى أحشائها وأصبحا لحماً ودماً..
وبكت فى صمت..

أنا

كان كل واحد في الصالون الأنيق يقول.. أنا.. أنا.. أنا..
الجراح الكبير ينفث الدخان من سيجار مدلى من فمه
كأنه مدخنة وابور طحين.. ويتلفت حوله في زهو.. ويلقى
الحديث على أصحابه في كلمات مرصوفة منمقة..

- أنا.. أنا.. أنا لما كنت في مستشفى هيدلبرج في
ألمانيا.. عملت العملية دي لوحدى ومن غير بنج.. فى خمس
دقائق.. لما الجراحين الصغيرين اللى كانوا معايا قعدوا
يستعجبوا وييصوا لبعض.. مش عارفين طبعا إني عملتها
ألف مرة فى القصر العيني قبل كده.. وإني كنت بعملها وأنا

مغمض.. وأفتح بطن العيان كأني بأعزف على البيانو.
ولم يكن واحد من المستمعين يتتبعه، فقد كان كل منهم
يتعجل دوره ليحكى شيئاً عن انتصاراته هو الآخر ولذلك لم
يكذ يفرغ من حديثه حتى انطلق رجل عجوز يجلس إلى
جواره يلوح بيديه قائلاً:

- أنا ما اعرفش في الجراحة.. أنا راجل مهندس.. لكن
حكاية التمرين دى صحيح.. أنا فاكراً لما وضعت تصميم
عمارة الأسبوطى.. رسمت الكروكى فى نص ساعة وأنا
باشرب الشاى الصبح.. وبعدين على العصر كان مكتب
التصميم شغال زى خلية النحل.. والمهندسين مكفين على
الورق ينفذوا الخطوط الى رسمتها.. وبعد سنة كانت
العمارة طالعة زى الزرع الشيطانى.. عشرين دور فوق
الأرض.. وكل واحد يبخلق.. ويقول ازاي.. ازاي عملها..
ازاي عملها الجن ده..

ولم يرق للمحامى أن يكون الصامت الوحيد في الزفة..
فهرش رأسه هو الآخر وما لبث أن قال:

- فى كل حاجة التمرين مهم.. مش بس الجراحة
والمبانى.. فى القضايا كمان.. أنا فى القضية الأخيرة اللي
هزت البلد.. استلمت المتهم فطسان من ايد النيابة..
بمعترف.. وماضى.. وباصم كمان.. ومع كده كسبت له

القضية.. ليه.. لأنى عشت فيها.. وعشت فى أمثالها ألف مرة
قبل كده..

وكانت زوجة المحامى طوال الوقت تنقر على كرسيها فى
ضيق..

- انتو الحقيقة ماسبتوش لنا حاجة يا رجالة.. لكن ايه
رأيكو انى أنا حاطلع أشطر منكم كلكم.. وانى حاعمل ثلاثة
زيكو كمان عشر سنين.. حايبقى عندى كمان عشر سنين
ابن جراح وابن محامى وابن مهندس.. أنا ولا أنتم بقى؟..
وكان طفلها يتشبث بها أثناء الحديث ويهمس فى أذنها بين
لحظة وأخرى:

- أنا حلو يا ماما.. أنا حلو؟

والقسيس الوحيد بين الضيوف يميل على الخادم..
ويقول:

- أنا عاوز القهوة سادة..

والشاب الأسمر الذى يقف إلى جوار النافذة يهمس إلى
شاب آخر بجانبه:

- أنا عاوز هوا.. هوا.. مايدوروش المروحة دى ليه؟
وفى وقت واحد كان من الممكن أن تسمع أحاديث
غريبة لا يمت الواحد منها إلى الآخر بصلة..

- أنا بقولك الحصان ده مش ممكن يكسب.. اوعى
تفكر تراهن عليه.. أنا كلامى عمره ما ينزل الأرض انت
عارف.

- أنا دماغى بتدق الظاهر الضغط رجع تانى..
- أنا عاوزهم كلهم يطلعوا ويسيبوني أنا والست الحلوة
الى هناك دى..

- أنا مش ممكن أسيب الراجل الندل ده.. الا ما أوديه
فى داهية.. أنا لازم أرفع عليه قضية وأدخله السجن.

- أنا اشتريت الأرض من الوقف.. كانت خرابة..
شوف دلوقت بقت إيه..

- أنا مروح..
- أنا حانام هنا..
- أنا..

كل واحد يقول.. أنا.. أنا.. أنا..
وشعرت بالغيط وأحسست أن كل واحد من الحاضرين
كذاب.. وأنه كذب على نفسه حينما حضر هذه السهرة
بحجة الصداقة.. فلا أحد كان يفكر إلا فى نفسه..
واستأذنت وانصرفت.

وعند باب العمارة.. كان البواب يلوح بذراعه في وجه زميله صائحًا:

- أنا مش آرف أنا عمك إيه.. أجيبك من هنا توديني هنا.. أنا من النهارده ماليش كلام معاك.. أنا بقالى عشرين سنة على الدكة دى ريس البوابين.. وكلامى يسمعه الكبير والصغير.. أنا لازم..

وفى الطريق توقفت عند محل.. أشتري منه بعض لوازمى.. وكنت ما أزال أفكر فى شلة الصالون التى تشبه عقدًا منفرطًا.. كل حبة فى خيط وحدها..

وحينما بلغت منزلى.. كان يجرى خلفى صبي صغير يحمل لى اللوازم فى صناديق على كتفه..

وحينما دخلت من الباب.. مددت يدي فتناولت لوازمى وذهبت لتوى إلى غرفة النوم.. وألقيت نفسى على فراشى مرهقًا..

وبعد مضي ساعة تذكرت فجأة إنى نسيت أن أنقد لصبي أجره..

نسيت لأنى أفكر أنا الآخر فى نفسى.. فى الأشياء التى أريدها.. والأشياء التى لا أريدها..

انفرطت أنا الآخر كحبة وحيدة تجرى في خيط وحدها..
وشعرت بالخجل والألم.. وجززت على أسناني.. ولم أدر
لمن أوجه اللعنة.. لنفسى.. أم للناس..
من المسئول عن هذا..؟

منتهى النجاح

كان المحامى الناجح يمسك بسيجارة زنوبيا ويتلفت حوله مختالا يلقي بكلمة هنا وبكلمة هناك كأنه يلقي باقة ورد ويتحدث فى إفاضة وإسهاب عن مغامراته فى عالم القضاء والقانون.. وعن غزواته فى عالم الحب.. وعن المغناطيسية التى فى شخصيته.. والثروة التى جمعها من لا شىء.. والترف الباذخ الذى يعيش فيه.. والمجد.. والشهرة.. والذئوع.. والـ.. والـ..

وكان المحاضرون ينظرون طويلا إلى الرجل الذى يقرءون اسمه كثيرا فى القضايا الكبرى.. ويقرءون مرافعاته.. ويطالعون صورته..

وكان الصالون واسعاً.. ولكن صوت المحامى كان يدوى فيه.. فيجعله يبدو ضيقاً:

تصوروا.. أهى القضية اللى أنا داخل فيها دى خسرانة ميه الميه.. قولولى داخلها ليه.. قولولى.. لأن هنا بيان الفرق بين المحامى والمحامى.. أهو أنا أجرى ورا قضية زى دى، وأشتغل فيها بإيديا ورجلياً.. ليه.. علشان يوم ما أجيب فيها براءة يبقى أكنى أحييت ميت..

قضية زى دى، ما أطالبش فيها بتطبيق القانون.. ولكن أناقش قانونية القانون.. وأدين القانون نفسه.. وأهزه من جذوره.. ودى هية المحاماة..

قضية زى دى تعوز إنك تلف العالم.. مش تقرأ كتاب.. الكتاب ما يعلمش..

الدنيا.. الدنيا.. اللف والدوران.. هو اللى يعلم.. شوفو بقالى قد إيه فى سلك المحاماه.. أقل من عشر سنين.. ومع كده مفيش بلد مارحتهاش.. إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأمريكا والسويد.. حتى روسيا..

وفى كل بلد لقيت القانون شكل.. والآخر بقى عندى ألف شكل وشكل فى دماغى.. وبقيت أقعد أفك وأركب القوانين على كيفى وأعمل منها براءة..

المحاماه فن.. فن.. شوفوا عبد الوهاب فنان صحيح..

لكن أنا فنان أكبر منه.. باعزف على المنطق زى ما هو
بيعزف على العود..

الحياة فى المحاكم لذة.. ومش بس المحاكم.. فى البيت
والشارع والمكتب.. شوفوا سنى دلوقت يمكن يقرب على
أربعين.. لكن أى واحدة بتعرفنى.. بتحبنى وتتعلق بى ويمكن
تسيب شبان صغيرين علشانى.. وتجربى ورايا مش عشان
جواز.. أبداً.. أنا متجوز ودبلى فى صباعى.. إنما عشان
الشخصية.. والخبرة.. واللف والدوران.. والصرمحة..

الناس بتحسدنى وتقول ده مليونير.. أنا صحيح باخد فى
القضية ألف جنيه.. وعایش فى قصر وخدم وحشم
وعرييات.. لكن أنا مين كمان.. أنا الأستاذ هارون المحامى.
قال هذا ثم بدأ ينقب فى وجوه الحاضرين عن الإعجاب
والانبهار.. ثم ابتلع كوب الشاى الذى كان قد برد أمامه..
دفعة واحدة.. وخيل إلى وأنا أراقبه فى أثناء هذه الخطبة
الحماسية عن نفسه.. انه يترافع.. كما لو كان متهاماً..

وحينما تفرق الضيوف وانفض الصالون.. ولم يبق أمام
الأكواب إلا أنا وهو.. رأيت وجهه يتراخى ويستريح..
وكأنه كان يلهث ويجرى طول الوقت ثم بدأ يسير بسرعه
الطبيعية.. ثم رأيت يخرج إلى البلكونة..

وفى البلكونة.. أخذنى من ذراعى.. وهمس فى أذنى:

- حضرتك دكتور؟
- أيوه..
- كنت عايز أسألك على حاجة..
- وكح.. وبلع ريقه.. ثم أردف:
- فيه طبعا أدوية جديدة عشان الـ.. عشان الـ..
- عشان الـ.. قصدى الجنس.. والـ..
- وتتحنح وسلك زوره وفرك كفيه فى ارتباك وعاد يتهته:
- حكاية الحقن اللى عملوها فى روسيا من القروذ..
- أيوه..
- أنا بسأل عشان واحد صاحبى يعنى.. مش عشانى..
- حاكم إنت عارف إن دى مسألة حساسة.. و..
- وماله.. مافيهاش حاجة..
- يعنى.. أنا خفت لا يروح فكرك.. إنى أكون يعنى
- وضحك ضحكة صفراء مقتضبة وأردف:
- طبعا مش معقول..
- ومضغ عدة كلمات فى فمه:
- أنا.. أدينى زى ما انت شايفنى زى التور..
- والتقط أنفاسه وأخذ يردد:

- زى التور..

وأخذ يحرك يديه كأنه يرفع ثقلا وينفى عن نفسه تهمة
تلح عليه، ثم سكت فجأة وحلق فى وجهى كأنه يبحث عن
نجدة.. وبادرنى قائلا:

- بس يعنى تفتكر صحيح.. حقن القروود دى بتنفع؟

وراح يفرك يديه فى ارتباك وتوسل..

ونظرت إلى عينيه فى تلك اللحظة.. فلم أجد الأستاذ
هارون المحامى وإنما وجدت رجلا آخر غلبان جدا..

كوكو

استديو.. لوحات تخطيطية على الجدران.. تماثيل.. هياكل
من الطين لم يتم نحتها بعد.. نسخة رخامية من التمثال
الإغريقي الشهير أوديت، هيكل نصفى لامرأة عارية، رأس
من الصلصال يعمل فيها الفنان بمطواة، وهو ينظر بين لحظة
وأخرى إلى امرأة جالسة إلى جواره.

المرأة - آهاتان هما شفتاي..

الفنان - لا.. إنها طعم شفتيك، إني أحاول أن أضع
فيها رعشة الحمى ولسعة النار وعذوبة السكر.. ونعومة
الحرير.. إني أكاد أذوق الصلصال وأنا أنحته.. ألا ترين
لساني وهو يخرج ويدخل في فمي.. إني أنحتك بلساني.

- أنت وغد.. إن من يسمع هذا يقول إنك تحبني حقًا.
- أتشكين في هذا..

- إني لا أصدق حرفًا واحدًا مما تقوله.. إني تعسة.. إني أكاد أحس بهذا الاستديو متحفًا للقلوب الكسيرة.. أكاد أرى كل هؤلاء النساء وهن يدخلن مثلى بقلوب راقصة كالعصافير.. ويخرجن في النهاية بقلوب ثقيلة باردة كالحجر.. إنك تحول حجارتك إلى نساء.. والثلث ندفعه نحن وحدنا.. بأن نتحول في بيوتنا إلى حجارة.. ومع هذا فأنا أحبك.. إني ضعيفة.. ضعيفة.. بل مجنونة.. وأنت وغد..

- حقًا.. يالى من ذئب.. لم أكن أعلم كل هذا عن نفسي.. دعيني أنظر إلى وجهى فى المرأة..
ينظر فى مرآة مكسورة بالحائط ويحدث نفسه:

- يا لك من ذئب عريق.. كان يجب أن توضع فى قفص يا ولد.. ويغلق عليك الباب.. أما أن تطلق هكذا فى الشوارع تأكل بنات الناس فهذا..

تمسك بيده وتقبلها.. ثم تقبله فى خده وشفتيه.. يستمر فى حديثه إلى المرأة..

- أما أن تطلق هكذا فى الشوارع يا ولد تأكلك بنات الناس.. فهذا..

تضع يدها على فمه لتسكته ثم تطوقه بذراعيها:
- هذا مستحيل يا آنسة.. كيف أصدق أن دجاجة تقبل
ذئباً في فمه.. ثم.. ثم تحضنه.. ثم تندب حظها لأنها راحت
ضحية..

- لست ذئباً يا كوكو.. انت حبيبي.. أتفهم.. أنت
متوحش فقط، متوحش في جاذبيتك.. كلامك يلتف حول
عنق البنات كالحبل.. ونظرتك تخلع عنهن الثياب.. ثم تقطع
في لحمهن كما تقطع هذه المطواة في الصلصال، والنهاية إنهن
يحبينك.. بل يعبدنك ثم يكتشفن أن جنسهن كله يحبك..

- وهذه هي الوحشية..

- نعم وهذه هي الوحشية..

- وأنا في النهاية مبذول من أجل الناس.. وليست لي
نفس أملكها.. أليست هذه مأساة.. أنت تطلبينى لنفسك..
وأنا لا أملك حتى نفسى، لأعطيها لك..

يعود إلى النحت ثم ينظر إلى عينيها طويلاً.. ويفطى
عينه..

- أحس كلما نظرت في عينيك أنى أنظر خلال نافذتين
مفتوحتين على هوة مظلمة.. هوة عميقة..

أريد أن أعرف ما وراء هاتين النافذتين.. أريد أن أضع

فى الصلصال الكلام الذى عجزت عيناك عن أن تقوله.
أريد أن ألمس المجهول خلف الحياة.. أريد أن ألمسه..
ألمسه..

يحس بالدوار فيضع يده على عينيه:
- املئى لى كأسًا من نبيذ بورديو الجيد..
تملاً له كأسًا.. فيشربه دفعة واحدة.. ويطلب كأسًا
أخرى..

يظل يشرب حتى تثقل أطرافه.. وينظر إلى الأستديو..
فيبدو فى نظره كجمدانة كبيرة بها وجه واحد يطفو فى النبيذ
هو وجه حبيبته..

يمر بيده على جبينها وشعرها.. يقبلها..
- حبيبتي.. لم أعد أصلح لشيء، لقد أصبح رأسى ثقيلًا.
يريح رأسه على صدرها.. ثم يغيبان فى حمى من القبل.

بعد عشرة أعوام..
الاستديو ملئ بالتماثيل.. ما زال تمثال أوديت الإغريقى
فى الركن تحت المصباح.. الفنان ينحت كتلة من الجبس..
وأمامه امرأة عارية تمامًا، إنها امرأة أخرى غير صديقه
الأولى.

الفنان - أنت تشبهين فينوس التى خرجت من زبد البحر.. أتعرفين بماذا أحس وأنا أنظر إلى جسمك العارى؟
المرأة - أعرف..

- لا.. إني أحس بشيء آخر غير الذى فى خاطرك..
شيء جديد.. صدرك وهو يخفق.. وبشرتك وهى تتصبب عرقاً.. وعيناك وهما تتألقان بغشاء رقيق من الدمع.. وجفنك وهو يطرف. كل هذا يملؤنى إحساساً بحقيقة جسمك.. فأنت غدة.. غدة كبيرة تعمل.. أنت الحياة تتنفس، وتتصبب دماً وعرقاً.. أنت الأرض الخصبة وسنبلة القمح وكوز الذرة الممتلئ..

ينفعل فيقوم من كرسیه.. ويقترب منها.. ثم يلمسها.
- نعم.. أحبك..

يبتسم فى شروء.. ثم يعود إلى تمثاله..
- وأحب هذا أيضاً..

يشير إلى التمثال الذى ينحته.

- ولكنك لا تفعل ما يفعله المحبون يا كوكو..
- إني أفعل شيئاً جديداً.. يجب أن يفعل الفنان شيئاً جديداً على الدوام..

- إن الفنانين أوغاد.. إنهم يفعلون دائماً الشيء الذى

لا تنتظره المرأة.. إذا تقدمت لهم كعشيقة عاملوها كأخت..
وإذا تقدمت كأخت عاملوها كزوجة..

- ها.. ها.. إنهم ذئاب أليسوا كذلك؟

- ليتهم ذئاب..

- إنهم دجاج..

دجاج بمنقار مذهب..

تنظر إليه بغيظ:

يناولها كأساً من النبيذ ويتناول هو ترموس تحت المائدة
ويملاً لنفسه كأساً من الينسون المثلج..

بعد عشرة أعوام أخرى..

الفنان وحده في الأستديو أمام كتلة من الحجر يفكر
ويكد ذهنه:

- أفكر في تمثال اسمه.. الأم.. أصنعه بدون نموذج..
أصنعه من قلبي.. من أحاسيسي ومشاعري.. أصنعه من
الحنان.. والرحمة والرفق..

سوف يشبه صدرًا عريضًا حانيًا وأثداءً ممتلئة.. ووجهًا
يكسوه السلام والمحبة.. سوف يغرى الذى ينظر إليه بأن
يضع عليه رأسه.. وسوف يهمس لكل طفل بكلمات طاغور:

أنت في سواد العين يا ولدى..
أنت في حنايا الفؤاد..
أنت في دمي..
أنت في روحي..
أريد لغة.. لغة صوتها أعلى من الشعر.
يعمل بأزميله في الحجر..

بعد عشرة أعوام أخرى.. وقد أصبح عجوزًا.. وابيض
شعره كالثلج.. نفس الأستديو وقد تحول إلى معرض..
زحام من المتفرجين..
امرأة تتجول هي وزوجها وأطفالها.. وما تلبث أن تقبل
على الفنان العجوز مهلة.. ثم تميل على أذنه هامسة:
كوكو.. ألا تذكرني؟..

يتطلع إلى وجهها ويبتسم في سعادة:
- أهو إنت يا شقية.. أحقًا تزوجت، وأصبحت سيدة
بيت.. لكم أنا سعيد بلقائك..
- أما زلت وغداً يا كوكو..
- لقد أصبحت غرابًا.. وطارت من حولي العصافير ولم
تبق إلا تماثيلها، أتذكرين تمالك؟..

تنظر إليه في عطف:

- نعم يا كوكو.. وأذكر نبيذ بوردو الجيد..

تتندى عيناه بالدمع.. ويصافحها في رقة.. تمضي مسرعة
إلى زوجها..

ما تلبث أن تخرج من الزحام امرأة أخرى وتهمس في
أذن العجوز:

- كوكو.. أتذكرني؟

- نانا الجميلة الرقيقة.. لقد أصبحت سمينة مثل البطة
لا أستطيع أن أصدق أن هذه هي الغزالة التي كانت تبكي
بلا سبب..

كوكو.. كوكو.. كوكو..

عشرة النساء تمضي كالأشباح.. كالذكريات الخاطفة كل
واحدة تتحدث فتبدو كأنها تتحدث من بعيد.. ثم تختفى..
كما يختفى سرب من اللحظات.

والآن.. لقد ذهب جميعاً.. وبقي هو وحده.. وانفض
المعرض، وخيم الصمت على الاستديو..

وهو يسير مطرقاً.. يروح ويحيى شارد القلب.. ثم تأخذه
نوبة من الانفعال.. فيبدأ في حديث طويل هامس متهدج مع
نفسه.. وهو يشير إلى تماثيله:

- وهذه فى النهاية هى أسرتى.. كلها من الحجر..
أوديت.. إيزيس.. فينوس.. ديانا.. هرمس.. أفروديت.. آلهة
الإغريق كلها وأنا على رأسها.. خالق تعس نسيته
مخلوقاته..

يقترب من أحد تماثيله:

-أنت يا نادية.. كنت تسمينى ذئبًا.. فأين أنت الآن..
لقد أصبح لك بيت وأطفال ورجل.. وأنا وحيد بين أسرة من
الحرس..

كنت فى شبابى كالبار.. تدقن بابى كلما برد الدم فى
عروقك فأمنحك كأسًا.. وحينما فرغت زجاجاتى.. ذهبت
تبحثين عن بارمان آخر..

كنت كعربة الجلاس فى الصيف.. تجد عابرات السبيل
عندى ما يرطب حلوقهن.. والآن.. هأنذا وحيد.. وحيد..
لا أجد من يرطب حلقى الجاف الملتهب..
يقترب من تمثال أوديت:

- أوديت الجميلة.. أنت تفهمينى جيدًا.. أنت تحملين
ذكريات ألف عام على كتفيك..
فى عينيك استطاع ذلك الفنان القديم أن يرسم ما لم
أستطع رسمه.. ما خلف الحياة..

أوديت الحبيبة..

يمسح على شعرها ويقبله :

- انظري في عيني.. هناك.. في الهوة المظلمة خلف حياتي.. في روحى.. رأيت حبي.. إنه حب غريب يعشق الحقيقة ذاتها..

إنه لا يقف عند امرأة واحدة.. وإنما يبحث عما وراء كل النساء وما وراء كل الرجال.. إنه يطلب صميم الحياة.. لقد تعذبت بما يكفى وراء هذا الحب وهأنذا في النهاية.. وحيد.. وحيد..

إن كلينا من مادة واحدة يا أوديت.. كلينا من مادة الأحلام.. إني أتمنى أن أفتح عيني فأجد نفسى قد استحلت عموداً من حجر..

لقد تعبت.. تعبت من إحساسى..

يمسح على شعرها ويبكى كالطفل !.

فهرس

صفحة

الوقت رخيص	٣
عنبر ٧	٩
القطار	٧٧
لا أحد	٨٤
الشاطر	٩٦
صاحب الجلالة	١١١
جرسون	١١٥
دقة قديمة	١٢٢
الماء والزيت	١٣١
أنا	١٣٤
منتهى النجاح	١٤٠
كوكو	١٤٥

صدر للمؤلف

- ١ - الله . والإنسان
- ٢ - أكل عيش
- ٣ - عنبر ٧
- ٤ - شلة الأنس
- ٥ - رائحة الدم
- ٦ - إبليس
- ٧ - لغز الموت
- ٨ - لغز الحياة
- ٩ - الأحلام
- ١٠ - أينشتين والنسبية
- ١١ - في الحب والحياة
- ١٢ - يوميات نص الليل
- ١٣ - المستحيل
- ١٤ - الأفيون .. (سيناريو)
- ١٥ - العنكبوت
- ١٦ - الخروج من التابوت
- ١٧ - رجل تحت الصفر
- ١٨ - الإسكندر الأكبر
- ١٩ - الزلزال
- ٢٠ - الإنسان والظل
- ٢١ - غوما
- ٢٢ - الشيطان يسكن في بيتنا
- ٢٣ - الغابة
- ٢٤ - مغامرة في الصحراء
- ٢٥ - المدينة (أو حكاية مسافر)
- ٢٦ - اعترفوا لي
- ٢٧ - ٥٥ مشكلة حب
- ٢٨ - اعترافات عشاق
- ٢٩ - القرآن محاولة لفهم عصرى
- ٣٠ - رحلتى من الشك إلى الإيمان
- ٣١ - الطريق إلى الكعبة
- ٣٢ - الله
- ٣٣ - التوراة
- ٣٤ - الشيطان يحكم
- ٣٥ - رأيت الله
- ٣٦ - الروح والجسد
- ٣٧ - حوار مع صديقى الملحد
- ٣٨ - الماركسية والإسلام
- ٣٩ - محمد
- ٤٠ - السر الأعظم
- ٤١ - الطوفان
- ٤٢ - الأفيون .. (رواية)
- ٤٣ - الوجود والعدم
- ٤٤ - من أسرار القرآن

- | | |
|----------------------------|--------------------------------|
| ٤٥- لماذا رفضت الماركسية | ٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر |
| ٤٦- نقطة الغليان | ٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة |
| ٤٧- عصر القروء | ٥٦- الإسلام ... ما هو ؟ |
| ٤٨- القرآن كائن حتى | ٥٧- هل هو عصر الجنون ؟ |
| ٤٩- أكلوبة اليسار الإسلامي | ٥٨- وبدأ العد التنازلي |
| ٥٠- نار تحت الرماد | ٥٩- حقيقة البهائية |
| ٥١- المسيح الدجال | ٦٠- السؤال الحائر |
| ٥٢- أناشيد الإثم والبراءة | ٦١- سقوط اليسار |
| ٥٣- جهنم الصغرى | |

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

- | | |
|---------------------|------------------------|
| قصص مصطفى محمود | صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ |
| روايات مصطفى محمود | صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ |
| مسرحيات مصطفى محمود | صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ |
| رحلات مصطفى محمود | صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ |
- حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٧/٥٩٢٣
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-5419-3

١/٩٧/٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال
الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى
محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم. . فأثرى
ساحة الفكر والعلم. . وطرق أبواباً جديدة لم تفتح من
قبل. . فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية
وأدب الرحلات. . إلى جانب تلك المؤلفات التي تحفل
بالنظرات المعاصرة للفكر الديني والمقارنة بالنظرات
العلمية الحديثة. . والتي لا تزال تثير مزيداً من الجدل
المفيد. .

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى
القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض
أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء
المتميز المتنوع.



دارالمعارف

٠٤٤٠٤٨/٠١

